دراسة حول

الإسلام والمسلمين في ظل الدولة المغولية في الصين

د. جعفر كرار أحمد
معهد البحوث الثقافية العربية الإسلامية
جامعة بكين

ملخص البحث :

تحاول هذه الدراسة أن ترسم صورة عامة عن العلاقة بين الحكام المغول في الصين والمسلمين والإسلام خلال الحقبة من ٦٧٠- ٧٧٠هجرية (١٢٧١- ١٣٦٨م) وهى الحقبة التي يطلق عليها المؤرخون الصينيون حقبة أسرة يوان الملكية. كما ترصد الدراسة وضع الإسلام والمسلمين في الصين في هذه الحقبة، كما سنحاول أن نستعرض مساهمتهم في بناء الدولة المغولية في الصين ومساهمتهم في رفد الحضارة والثقافة الصينية والتطور الاقتصادي والعلمي للصين في هذه الحقبة. كما اختارت الدرسة شخصيتين إسلاميتين هما السياسي المسلم العظيم السيد الأجل عمر شمس الدين، والمعماري يحيى طاهر بوصفهما شخصيتين قدمتا إسهامات ملموسة وتركتا خلفهما مآثر مشهودة. كما سترد الدراسة على مدرسة غربية قلّلت وتقلّل بشكل مستمر من إسهامات المسلمين الصينيين في مجرى الحضارة الصينية في تلك الفترة. وأخيراً تفترض هذه الدراسة أن الإسلام الذي جاء إلى الصين خلال أسرة تانغ ٦١٨- ٩٠٧م قد ازدهر بشكل كبير وتحول إلى دين جماهيري إبّان الحقبة المغولية في الصين.

المقدمة :

تحاول هذه الدراسة أن ترسم صورة عامة عن العلاقة بين الحكام المغول في الصين والمسلمين والإسلام خلال الحقبة من ٦٧٠- ٧٧٠هجرية (١٢٧١- ١٣٦٨م) وهى الحقبة التي يطلق عليها المؤرخون الصينيون حقبة أسرة يوان الملكية.

كما ترصد الدراسة وضع الإسلام والمسلمين في الصين في هذه الحقبة، كما سنحاول أن نستعرض مساهمتهم في بناء الدولة المغولية في الصين ومساهمتهم في رفد الحضارة والثقافة الصينية والتطور الاقتصادي والعلمي للصين في هذه الحقبة.

كما اختارت الدرسة شخصيتين إسلاميتين هما السياسي المسلم العظيم السيد الأجل عمر شمس الدين، والمعماري يحيى طاهر بوصفهما شخصيتين قدمتا إسهامات ملموسة وتركتا خلفهما مآثر مشهودة.

كما سترد الدراسة على مدرسة غربية قلّلت وتقلّل بشكل مستمر من إسهامات المسلمين الصينيين في مجرى الحضارة الصينية في تلك الفترة مشككين في انتمائهم الوطني للصين بشكل يرمي إلى عزلهم عن محيطهم الثقافي والسياسي الراهن، والكاتب يعتقد أن الإسلام في الصين لم يعد ديناً أجنبياً في الصين وقد بلغ عمره أكثر من ١٣٠٠عام يقف جنباً إلى جنبٍ مع أديان الصين الأخرى وفلسفاتها كالبوذية والطاوية والكنفوشسية وغيرها.

وأخيراً تفترض هذه الدراسة أن الإسلام الذي جاء إلى الصين خلال أسرة تانغ ٦١٨- ٩٠٧م قد ازدهر بشكل كبير وتحول إلى دين جماهيري إبَّان الحقبة المغولية في الصين.

الإسلام في الصين قبل العصر المغولي :

تؤكد المصادر التاريخية الصينية أن الوجود العربي في الصين تزامن مع مجيء أسرة تانغ (Tang) (٦١٨- ٩٠٧م) إلى حكم الصين، وقبل ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية وقد كان هناك عرب ضمن رعايا تلك الأسرة وكانت لهم نشاطات تجارية بالإضافة إلى صناعات صغيرة حيث أقاموا مصنعاً بمدينة قُوانغتُشو (Guangzhou) وذلك في حدود سنة ٥ هجرية (٦٢٦م)[١]..

هذا بينما تؤكد مصادر أسرة مينغ والمصادر التي تلتها أن أربعة رجال من شبه الجزيرة العربية جاءوا إلى الصين أثناء حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بغية نشر الإسلام بها، وقد استقر أولهم في مدينة قُوانغتُشو (Guangzhou) بينما استقر الثاني في مدينة يَانْغتُشو (Yang Zhou) وانتهى المقام بالصحابيين الثالث والرابع بمدينة قُوانغتُشو (Quangzhou)[٢].

هذا بينما ترصد مصادر أخرى بعثة يبدو أنها ذات طابع رسمي قادمة أيضاً من شبه الجزيرة العربية حيث يؤكد القس فيندلي أندرو (Findly Andrew)، أنه على الأقل(لنا سجل واحد عن زيارة قامت بها بعثة عربية إلى الصين خلال حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، حيث قامت تلك البعثة بزيارة البلاط

(١) Broom Hall , Marshall . Islam in china, a Neglected Problem, London, Morgan and Scotts, 1910, p 8

(٢) Lao Qing

المسلمون في مدينة يانجو الماضي والحاضر ، مجلة بناء الصين، العدد رقم ٩، سبتمبر ١٩٨٩م ، ص ٤١، وانظر: إبراهيم فنغ جين يوان، تعريب محمود يوسف لي هوا ين، الإسلام في الصين، بكين دار النشر باللغات الأجنبية، الطبعة الأولى ، ١٩٩١ ، ص ٧- ٩ ، وأيضاً

Leslie, Donald Daniel, Islam In traditional China, Ashort history to 1800 AD, Canberra College of Advance Education, 1986, P.69-78

الإمبراطوري في العاصمة شيآن (Xi An) (مدينة شيآن الحالية) وبعد انتهاء مهمة البعثة عادت إلى الجزيرة العربية مخترقة وسط آسيا ثم بلاد فارس ووفقاً للتقاليد الصينية فإن الإمبراطور أرسل مع البعثة من يدلها على طريق عودتها إلى موطنها(١).

ونلاحظ أنَّ أعداداً كبيرة من العرب والفرس كانت تقيم في بعض المدن الصينية إبَّان فترة مملكة وَي (Wei) الشمالية (٣٨٦م- ٥٥٧م) بالإضافة إلى جالية عربية كبيرة كانت تقيم في منطقة لُويَانْغ (Lo Yang) المعروفة الآن بمحافظة خونان، هذا إلى جانب جالية عربية مشهورة في قُوانغتْشو (Guangzhou) (٢).

ومن الطبيعي أن يكون العرب قد حملوا مع بضائعهم وتجاراتهم ، ثقافاتهم ودينهم الجديد. ونعتقد أنَّ التّجار العرب في الصين الذين قد يكون أسلم بعضهم إبّان حياة الرسول الكريم قد ساهموا في سنة٣١هجرية (٦٥١م) بتنظيم أول بعثة إسلامية رسمية للصين أرسلها الخليفة الراشد عثمان بن عفان إلى البلاط الصيني وقد استقبلت تلك البعثة استقبالاً طيباً في الصين(٣).

وقبل أن يتلاشى حكم أسرة تانغ كان الإسلام قد وجد له موطأ قدمٍ في الصين وبلغ المسلمون من القوة والاحترام للحد الذي سمح فيه إمبراطور الصين باختيار

---

(١) Rev. G. Findlay Andrew, O.B.E, Islam in North –.China today , Journal of the Royal Central Asian Society, Vol. XIX , January 1932, p.90 . See also, O.C. Crawford. The Appeal of Mohammedanism to the Chinese Mind. No date, Yen Ching University Library, Soochow, west no date, p.2

(٢)رضوان ليو روى ، اللغة العربية في الصين ، الماضي والحاضر ، مقال من جزأين ، الجزء الأول ، مجلة بناء الصين ، العدد الأول ، يناير ١٩٨٩ ، ص ٣٢.

(٣) كتاب تاريخ أسرة تانغ الجديد، الفصل ٢١١(باللغة الصينية)، وانظر Broom Hall, Op. Cit., P.13

وال من بينهم يحكم بينهم، وفى هذا الصدد يذكر سليمان التاجر السيرافى "أنَّ بخانفو وهو مجتمع تجار البحار رجلاً مسلماً يوليه صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون إلى تلك الناحية نائباً عن ملك الصين وذلك إذا كان في العيد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطان المسلمين وإنَّ التُّجار العراقيين لا ينكرون في ولايته شيئاً من أحكامه وعمله بالحق وبما في كتاب الله عزَّ وجلّ وأحكام الإسلام"[1].كما تعزّزت في هذه الحقبة العلاقات بين التُّجار العرب من جهة والبلاط الصيني، وبين البلاط الصيني ومراكز الخلافة الإسلامية في بغداد ودمشق وغيرها من جهة أخرى وعلى سبيل المثال وليس الحصر وصلت في الحقبة من ٣١- ١٨٤ هجرية (٦٥١- ٨٠٠ ميلادية) ثلاث وأربعون سفارة عربية إسلامية إلى بلاد الصين تغطي عهود الخلفاء الراشدين والدولة الأموية وجزءاً من الدولة العباسية ١٣٣- ٢٣٣ هجرية (٧٥٠- ٨٤٧ ميلادية) حيث أوفد كل من أبي العباس، والمنصور، والمهدي، والهادي وهارون الرشيد بعثات إلى الصين. وفي هذا الصدد فإن موسوعتي تَانغ شو (Tang Shu) وسي– فو– يوان – قوي (Ce-Fu-Yuan-Gui) الإمبراطوريتين تذكران أن عدد السفارات العربية الإسلامية إلى الصين خلال حقبة الدولة الأموية بلغ سبع عشرة سفارة بالإضافة لخمس عشرة سفارة أوفدتها الدولة العباسية وسفارتين أخريين أرسلهما حكام عمان[2].

---

(١) السيرافى، أبوزيد، رحلة السيرافى إلى الهند والصين، منشورات البصري، بغداد، ١٩٦١، طبعة جديدة لكتاب سلسة التواريخ والمتضمن رحلة سليمان التاجر المسمى بأخبار الصين والهند وما أضافه عليها أبوزيد الحسن السيرافى، ص ٣٤.

(٢) انظر كتاب تاريخ أسرة تانغ القديم، الفصل ١٩٨، (باللغة الصينية) وأيضاً Ce- Fu-Yuan Gui (أرشيف الموسوعة الإمبراطورية) الفصل ٩٧٦- ٩٧٠، باللغة الصينية. وانظر أيضاً فيصل السامر، الجذور التاريخية للحضارة العربية والإسلامية في الشرق الأقصى، دار الطليعة، مطبوعات وزارة الإعلام العراقية، ١٩٧٧، ص ٤٦.

وبانهيار أسرة سُونْغ (Song) الملكية ٣٤٩- ٦٧٨ هجرية (٩٦٠-١٢٧٩م) التي أعقبت أسرة تَانْغ (Tang) كان المسلمون والإسلام قد مضى على وجودهم في الصين أكثر من ستة قرونٍ عُمر خلالها الكثير من المساجد ودخل الكثير من السكان المحليين إلى الإسلام وشارك أحفادهم في إدارة الدولة الصينية وفى حركة الأدب والثقافة وإن لم يكن بصورة ملفتة وواسعة، كما كانت التجارة العربية الصينية تعيش أزهى عصورها[1].

وعلى كل حال انتهت صفحات مجيدة في تاريخ التبادل بين الصين والدول الإسلامية في سنة ٦٥٦ هجرية (١٢٥٨م) عندما سقطت العاصمة بغداد على يد القائد المغولي هولاكو لينتهي العصر الذهبي للعلاقات الصينية العربية في الفترة العباسية.وبعد عقدين من سقوط الخلافة العباسية أنشأ المغول في عام ٦٧٨هجرية ١٢٧٩م أسرة يوان الملكية في الصين ليصبح المغول سادة لكل من بغداد وبكين.

* * *

---

(١)جعفر كرار أحمد، تاريخ العلاقات الصينية العربية، رسالة دكتوراه، جامعة نانجين، إشراف الأستاذ Chen De Zheوالأستاذ المساعد Hua Ta جامعة نانجين، ١٩٩٥ ، انظر الجزء الخاص بتاريخ العلاقات الصينية العربية إبّان أسرتي تانغ وسونغ الملكيتين في الصين.

المغول والإسلام في الصين :

وهكذا نرى أنه وقبل أن يدكّ المغول أسوار أسرة سُونغ (Song) الجنوبية في سنة ٦٧٩ هجرية (١٢٨٠م) ليوحدوا كل الصين تحت قبضتهم كان للإسلام في الصين وجود وأتباع.

إلا أنَّ المغول الذين اجتاحوا كل مناطق آسيا الوسطي وأجزاء واسعة من غرب آسيا أجبروا معهم عشرات الآلاف من الحرفيين والمهنيين والعلماء والإداريين المسلمين للتقدم معهم باتجاه الصين أو جلبهم من هذه المناطق بعد أن استتب الأمر لهم لإدارة بلد بلغ من الحضارة والتقدم شأناً عظيماً. والمعروف عن المغول أنهم بالرغم من قسوتهم الشديدة أثناء الحروب إلا أنهم كانوا أثناء زحفهم يوقرون العلماء ويبقون على حياتهم بغية الاستفادة منهم في حكم البلدان والشعوب التي تقع تحت قبضتهم[١] * وكان جنكيزخان ٦٠٣- ٦٢٥ هجرية (١٢٠٦-١٢٢٧م) نفسه قد أسر في معركة سمرقند في سنة ٦١٧ هجرية (١٢٢٠م) أكثر من ٣٠ ألف شخص جزء كبير منهم حرفيون وصناع أسلحة وعلماء ومهنيون وفنانون مسلمون.وقد أقام بعضهم لاحقاً في منغوليا وشمال الصين[٢].وهكذا أجبر المغول

---

(١)طه ندى، فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية بلا تاريخ، ص ١٥٦، انظر أيضاً، جامع التواريخ، رشيد الدين فضل الله الهمذاني، تاريخ المغول، المجلد الثاني –الجزء الأول، الإيلخانيون، تاريخ هولاكو مع مقدمة رشيد الدين، نقله إلى العربية محمد صادق نشأت، محمد موسى هنداوى، فؤاد عبد المعطي الصياد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الإقليم الجنوبي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، بلا تاريخ ص ٣١٧.

* يورد كتاب جامع التواريخ- تاريخ المغول- الإيلخانيون. قصة مقتل الملك ناصر الدين الذي فوض إليه هولاكو حكومة دمشق فيقول "وأهلكوا الملك الناصر مع ثلاثمائة رجل شامي. وباستثناء مجد الدين المغربي الذي نجا بحجة اشتغاله بالتنجيم –لم يتركوا أي مخلوق آخر حياً" ص ٣١٧.

(٢) Rossabi, Morris , the Muslims in the Early Yuan Dynasty , John D.Langlois , Jr, (editor), China Under Mongol, (Princeton University Press , New Jersey) 1981, p. 236

الكثير من المسلمين بالتقدم معهم إلى الصين للمساعدة في إدارتها وأصبح العرب والمسلمون الذين سقطت دولتهم الإسلامية في سنة ٦٥٦ هجرية (١٢٥٨م) جزءاً من الشعوب التي يحكمها المغول، وقد لاحظ المغول المهارات الإدارية والعلمية للمسلمين القادمين من غرب ووسط آسيا فاتخذوا قراراً بالاستفادة من خبراتهم في حكم الصين، ويقول المؤرخ العراقي الراحل هادى العلوي في هذا الصدد: إنَّ المغول قد اعتمدوا على الأجانب بما فيهم المسلمون لحكم الصين في الحقبة المغولية لاعتبارين:

١- كفاءتهم في مناحي الحياة المختلفة لكونهم العنصر الأرقى تمدناً في ذلك الوقت.

٢- منطق الاحتلال الذي يعتمد على الأجانب لحكم بلد محتل لعدم ثقته بأبناء البلد وفى هذين الاعتبارين لعب – على حد تعبيره- المسلمون دور العنصر الكفء في إدارة بلد متحضر مع دور المتواطئ الأجنبي ضد بلد محتل[1].وبالرغم من أننا نكاد بشكل عام نتفق مع أستاذنا الجليل هادي العلوي في تقييمه لأسباب اعتماد المغول على الأجانب ومن ضمنهم المسلمون لإدارة الصين إلا أنَّ هادي العلوي لم يلحظ أنَّ المسلمين كانوا في ذلك الوقت هم أنفسهم مواطنون في الإمبراطورية المغولية الضخمة وكانت معظم أراضيهم تحت الاحتلال المغولي أيضاً.

وعلى كل حال قام المغول الذين حكموا الصين من داخل الصين وليس من عاصمتهم في منغوليا بإيجاد تنظيم يبدو في شكله العام أقرب لنظام الفصل

(١) هادي العلوي، المستطرف الصيني، من تراث الصين، منشورات دار المدى، سوريا، دمشق، ١٩٩٤، ص ٢٩٩

العنصري الذي كان سائداً في جنوب أفريقيا حيث قسَّم الحكام المغول الناس إلى أربع طبقات أو مجموعات بامتيازات مختلفة وهم : -

١- (Mongo Ren) المغول.

٢- (Semu Ren) وهم الأجانب من مسلمين ومسيحيين ويهود ولادينيين، عرب وكوريين وأتراك وفرس وغيرهم.

٣- (Han Ren) وهم سكان شمال نهر اليانغسى.

٤- (Nan Ren) وهم سكان جنوب نهر اليانغسي(١).

وهكذا وجد القادمون الجدد من المسلمين في الصين وغيرهم من أصحاب الديانات موقعاً متقدماً في السلم الاجتماعي بحسبان وجودهم ضمن الفئة الثانية حسب التقسيم العرقي المغولي (Semu Ren) وقام المغول بنشر مئات بل آلاف المسلمين في جميع أنحاء الصين، في مدن الصين وقراها من يونان إلى بكين ومن منغوليا الداخلية إلى قُوانغتُشو (Quangzhou) للمساهمة في إدارة الإمبراطورية الجديدة وحماية الأمن واستصلاح الأراضي وحماية الثغور وذلك وفق نظام إداري وعسكري صارم، إلا أنَّ الوثائق التاريخية الصينية والعربية والغربية التي اعتمدنا عليها في هذا البحث تشير إلى أنه كان للمسلمين مكانة مهمة لدى قبلاي خان الذي وحَّد الصين، وقد حظي المسلمون في عصره بثقة البلاط المغولي وإن لم تكن هذه الثقة كاملة كما سنرى لاحقاً في متن هذه الدراسة إلا أنهم كانوا يبدون في وضع جيد بشكل عام. وقد استفاد قبلاي خان من مهاراتهم الإدارية والسياسية

---

(١)Baabar , Edited by C.Kaplonski , Translated by D.suhjargalmaa, S.Burenbayar ,H.Hulan and N.Tuya,. History of Mongolia , First Published , 1999, White house Press , Knapwell, Cambridge ,p 49

والاقتصادية والعلمية والعسكرية لإدارة مملكته الجديدة في الصين. وتلاحظ الوثائق الصينية أنَّ المسلمين كانوا يحتفظون بمواقع مهمة في المملكة الجديدة حتى قبل أن يقضي المغول نهائياً على أُسرة سُونغ (Song) الجنوبية ٥٢١- ٦٧٨ هجرية (١١٢٧- ١٢٧٩م) حيث كان ـ على سبيل المثال ـ القادة العسكريون الرئيسيون في يونان من العرب المسلمين وكان في مقدمتهم قادة يعرفون بأسماء بهاء الدين وعلاء الدين ويوسف[١].كما كان عدد كبير من الإداريين كما سنرى لاحقاً ينتشرون من بكين وحتى يونان ومنغوليا الداخلية الحالية، بل إنَّ خبراء مدافع مسلمين مثل إسماعيل وعلاء الدين قد أسهموا في اجتياح مدينة ِشيانغ يَانغ (Xiang Yang) آخر معاقل أُسرة سُونغ (Song) الجنوبية حيث يقول تاريخ أُسرة يوان في هذا الصدد "أرسل في عام ١٢٧١م شِي زو (Shi Zu) (قوبلاي خان) مبعوثا خاصا إلى الأمير يبو قو(Abu- ge) الذي كان حاكماً على فارس يطلب منه إرسال فنيين متخصصين في صناعة المدافع. وقد أمر الأمير المنغولى إسماعيل (i- si- ma – yin) وعلاء الدين (wa-ding-alo) و(علاء الدين) من منطقة mu- fa- li(قد تكون الموصل) بالسفر إلى الصين وقد حضر الرجلان وعائلتاهما إلى العاصمة Dadu (بكين الحالية) عبر طريق البري.وفى سنة ٦٧٢ هجرية (١٢٧٣م) هاجم الجيش المغولي مدينة شِيانغ يَانغ Xiang (Yang) الموقع الإستراتيجي والمعقل الحصين لحكام أُسرة سُونغ (Song) الجنوبية التي كانت لا تزال تقاوم الغزو المغولي وقد استدعي إسماعيل وعلاء

(١) Jianping Wang , Concord and Conflict , The Hui Communities Of Yunnan Society in a Historical Perspective , Edited by Torad Olsson , Lund Studies in African and Asian religions , volume 11,printed by Student Littérateur, Lund, 1996, p 46.

الدين على الفور للجبهة الأمامية للقتال واستخدما مهارتهما الفنية والقتالية حيث استخدما آلة لقذف الحجارة وحطما بها سور المدينة وأبراجها مما أدخل الهلع إلى قلوب المحاربين وسكان المدينة "[١].

ونلاحظ أنَّ علاء الدين وإبراهيم قد عينا بعد فتح المدينة وانهيار أُسرة سُونغ الجنوبية جنرالات في وحدة المدفعية التي كونها العرب المسلمون كوحدة ضاربة في الجيش المغولي ورقيا بعد ذلك إلى مركز عسكري لا يشغله في الغالب إلا القواد المغول وهو منصب (Wan Hua) أي قائد لـ ١٠ آلاف مدفعجي[٢].ونلاحظ أنَّ أبناء وأحفاد هذين القائدين العسكريين قد ورثوا مواقع آبائهم وأجدادهم في الجيش المغولي كفنيين وجنرالات في سلاح المدفعية. ويورد كتاب تاريخ أسرة يوان عدداً من أسماء أبنائهم وأحفادهم نذكر منهم فوزي(Fu-mou-zi) وحفيده محمد (Mahama- su) والحسن وابن إبراهيم وغيرهم[٣].ويلقى مصدر إسلامي آخر مزيداً من الضوء على دور المسلمين في نقل صناعة البارود والمدافع إلى الصين والإسهام في هزيمة أسرة سُونغ الجنوبية إذ يقول رشيد الدين " وصل صنّاع المنجنيق ومساعدوهم من بعلبك ودمشق وهم طالب، إبراهيم، ومحمد وصنعوا سبعة مناجيق وضربوا بها مدينة شِيانْغ يَانْغ فو (Xiang Yan Fu) "[٤]*.

---

(١)كتاب تاريخ أسرة يوان، الفصل ٢٠٣ (باللغة الصينية).

(٢)نفس المصدر.

(٣)نفس المصدر.

(٤) Boyle, John Andrew, The Successors of Genghis Khan, Translated from the Persian of Rashid Al-Din, New York, Columbia University Press, 1971, pp. 290-291

* أول من وضع المنجنيق جذيمةُ الأبرشُ ملكُ الحيرة على العرب. وذكر الواحدي في تفسير سورة الأنبياء: " أن الكفار لما أضرموا النار لإحراق إبراهيم عليه السلام لم يقدروا على القرب من النار ليُلقوه فيها، فجاءهم اللعين إبليس فعلمهم وضع المنجنيق فعملوه وألقوه فيه فقذفوا به في النار، فكان أول منجنيق عُمل". انظر

ويعتقد المؤرخون الصينيون أنَّ هذه المعركة أرخت لوصول صناعة المدافع للصين من بلاد العرب.

وحول نفوذ المسلمين في الصين إبَّان هذه الحقبة يقول الأب جوبيل" إنَّ المسلمين كانوا دائماً على أعظم جانب من القوة في قصور أمراء المغول، وكان لهم كتائب وقواد من جنسهم، كما كان منهم موظفون كبار في جميع الفروع، ولا سيما في الرياضيات، وأساتذة عظام بل ووزراء[1].ومن ملامح نفوذ المسلمين في البلاط الإمبراطورى في تلك الحقبة أنَّ مراسيم وأوامر قوبلاي خان كانت تترجم إلى اللغة العربية والفارسية[2].وكان المسلمون في بعض المناطق في الصين لا يقلون قوة ومهابة عن قادة المغول أنفسهم مثل منطقة يونان التي كادت أن تكون دولة إسلامية خالصة للمسلمين حيث ظل قادة عسكريون مسلمون مثل بهاء الدين وعلاء الدين ويوسف يسيطرون على الإقليم وكان القادة المسلمون هناك ينافسون أمراء المغول في الشؤون العسكرية والسياسية والاقتصادية[3].وكان وضع المسلمين في يونان قوياً بما فيه الكفاية للحد الذي أقدم فيه الحاكم حسين بن السيد الأجل عمر شمس الدين حاكم محافظة يونان على إعدام عدد من الرجال الذين استخدموا الشعوذة لإثارة القلاقل وعدم الاستقرار وسط السكان وكان هؤلاء المشعوذون مدعومين من قبل أمير منغولي ذو نفوذ في تلك المنطقة.[4]

كتاب صبح الأعشى، تأليف الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي، الجزء الثاني، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٩١٣م ص ١٣٧

(١)جامع التواريخ، رشيد الدين فضل الله الهمذاني، تاريخ المغول، المجلد الثاني– الجزء الأول، الإيلخانيون، تاريخ هولاكو مع مقدمة رشيد الدين، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٤.

(٢) Rossabi, Morris, the Muslims in the Early Yuan Dynasty, op.cit. p. 276

(٣) Jianping Wang, Concord and Conflict, op.cit., pp. 46, 53, 69. -20

(٤) Ibid., p.71.

هذا في الأقاليم البعيدة، أما في مراكز السلطة الرئيسية فقد كانت الإدارة المغولية تمنح الأولوية في الوظائف للمغول وإذا ما تعذر وجود شخص ذي كفاءة للمنصب من بينهم يمنح للمسلمين خصوصاً من الأسر التي عرفت بخدمة الإمبراطور لأجيال طويلة.[١]

وقد لاحظ الباحث الصيني وَانْغ جينْغبينْغ (Wang Jiangpeng) أنه على كل رأس إدارة إمبراطورية شخصية مغولية يليها مباشرة شخصية مسلمة.[٢]

كما كانت الإدارة المغولية تقدم تسهيلات خاصة للمرشحين لامتحانات الإدارة الإمبراطورية التي تحدد الوظائف في بكين حيث يخضع المغول والمسلمين لامتحانات أسهل من تلك التي تقدم للمرشحين الصينيين.[٣] وللتدليل على العلاقة الخاصة التي قامت بين المغول والمسلمين في تلك الحقبة نلاحظ أنَّ أمراً إمبراطورياً صدر في سنة ٧٠٩هجرية (١٣٠٩م) لتقليل أعداد الحرس في القصر الإمبراطوري وقد استثنى الأمر المغول والمسلمين.[٤] وعلى صعيد دور المسلمين الاقتصادي والسياسي والإداري في فترة يوان المغولية في الصين تحفظ لنا المصادر التاريخية الصينية مثل تاريخ أسرة يوان والعربية والإسلامية مثل رشيد الدين كماً هائلاً من المعلومات حول المكانة التي وصلها المسلمون في السلم الإداري والسياسي في هذه الحقبة، حيث حكم السيد الأجل عمر شمس الدين وأبناؤه حسين ومسعود وسعد وسحبان وغيرهم يونان لعقود طويلة.كما يذكر القلقشندي

---

(١) Ibid., p.69.

(٢) Ibid., p. 70.

(٣) . Ibid., p.70

(٤) Ibid., p.69

في صبح الأعشى أنَّ عربياً اسمه قطب الدين أو يوتنق كان وزيراً للملكة في سنة ٧٠٢هجرية (١٣٠٢م).[١]كما أشار رشيد الدين في جامع التواريخ إلى وزير مسلم يدعى ماهان بلغ شأواً عظيماً عند الإمبراطور حيث اشتهر برجاحة العقل وحسن السياسية وغزارة العلم وقد كتب موجزاً بالمغولية للحوليات الصينية.[٢]كما اشتهر بعض القادة المسلمين في تلك الحقبة بمهاراتهم العسكرية حتى قادوا جيوش المغول غرباً وشرقاً ومنهم قائد عسكري مسلم يدعى نصر الدين أرسله الإمبراطور لضم بورما للدولة المغولية.[٣] هذا بالإضافة إلى القائد العسكري المسلم عمر الذي كان من أعظم القادة العسكريين في جيوش المغول، وكان يحظى بسبب مهاراته العسكرية الفائقة وشجاعته باحترام وسط قادة المغول العسكريين.[٤] كما احتل مسلمون مثل أحمد فانكاتى منصب كبير وزراء قوبلاي خان واستمر في هذا المنصب طوال الفترة من ٦٦١- ٦٨١ هجرية (١٢٦٢- ١٢٨٢م).[٥] كما احتل أديب مسلم يدعى قاوكه قونغ ٦٤٦- ٧١٠ هجرية (١٢٤٨- ١٣١٠م) الملقب

---

(١)فيصل السامر ، الجذور التاريخية للحضارة العربية والإسلامية في الشرق الأقصى ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢٥ ، انظر أيضاً.

Boyle, John Andrew, The Successors of Genghis Khan , , op.cit., pp 279,287,288 see also Jianping Wang , Concord and Conflict , op.cit., pp. 69-81.

(٢)جامع التواريخ، رشيد الدين فضل الله الهمذاني، تاريخ المغول، المجلد الثاني – الجزء الأول، الإيلخانيون، تاريخ هولاكو مع مقدمة رشيد الدين، مصدر سبق ذكره ص ١٢٤

(٣) Rossabi, Morris, the Muslims in the Early Yuan Dynasty, op.cit., p. 277.

(٤)جامع التواريخ ، رشيد الدين فضل الله الهمذاني ، تاريخ المغول ، المجلد الثاني – الجزء الأول ، الايلخانيون ، تاريخ هولاكو مع مقدمة رشيد الدين ، مصدر سبق ذكره ص ١٢٤.

(٥) Boyle, John Andrew, The Successors of Genghis Khan, op.cit., pp.288-290 .

بيَانْغ جينْغ في سنة ٦٧٦ هجرية (١٢٧٧م) مراكز حكومية هامة منها وزير العدل ووالي مديرية دَامِينْغ بالقرب من العاصمة بكين.[١] ويذكر رشيد الدين في جامع التواريخ عدداً من المسلمين تولوا مناصب مهمة في الدولة المغولية مثل بيان الدين سيد ناصر الدين، حفيد السيد الأجل عمر شمس الدين حيث كان بيان الدين أهم مسؤول إداري في بلاط تيمور خان يليه مباشرة مغولي مسلم اسمه عمر.[٢] كما كان حفيد آخر للسيد الأجل عمر شمس الدين وهو بخاري وزيراً في بلاط قوبلاي خان بينما أصبح نصر الدين الأجل حاكماً على محافظة قَارَا جَانْغ (Jang)Qara (يونان).[٣]وعين أبوبكر الأجل حاكماً على مدينة قُوانغْتشُو (Quangzhou) (الزيتون).[٤]

كما تم تعين عدد من المسلمين كحكام مقاطعات ومسؤولين ماليين مثل بهاء الدين قنبيزى وسعد ذو شينغ وعمر القرقيزى ونصر الدين مالك الكشكرى وهند ذوشينغ.[٥]

ووفقاً لقائمة المناصب الرسمية في الإمبراطورية المغولية (أسرة ايوان) نجد

---

(١) إعداد محمود يوسف – لي خوا ين وآخرdن ، تعريب محمود يوسف ، لي هوا ين وآخرين ، الشخصيات الإسلامية البارزة في الصين ، دار النشر باللغات الأجنبية ، بكين، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣ ، ص ص ١٠- ١١. انظر ايضاً ، يحي لين سونغ ، قاو كه قونغ ، الرسام المسKhan، مقالاً في كتاب سلسلة ثقافية (١)، منشورات مجلة بناء الصين ، دار النشر باللغات الأجنبية ، بكين، ١٩٨٢ ، ص ١٣٠.

(٢) Boyle, John Andrew, The Successors of Genghis Khan , op.cit., p279

(٣) Ibid., p. 287.

(٤) Ibid., p. 288.

(٥) Ibid., pp 294-295.

الأسماء الآتية من المسلمين في المناصب التالية: *

الاسم	المنصب الرسمي	وظيفة قام بها
حسن	يوجينغ	المساعد الأول لرئيس الوزراء
دولت شاه	تسوجينغ	المساعد الثاني لرئيس الوزراء
بدر الدين	تسوجينغ	المساعد الثاني لرئيس الوزراء
ظهير الدين	تسوجينغ	المساعد الثاني لرئيس الوزراء
السيد الأجل	بينغ جانج	مستشار سياسي
أحمد	بينغ جانج	مستشار سياسي
على	بينغ جانج	مستشار سياسي
سيف الدين	بينغ جانج	مستشار سياسي
بيان	بينغ جانج	مستشار سياسي
علاء الدين	بينغ جانج	مستشار سياسي
فخر الدين	بينغ جانج	مستشار سياسى
عبيد الله	بينغ جانج	مستشار سياسي
بيان جبر	بينغ جانج	مستشار سياسي
قطب الدين	بينغ جانج	معاون مستشار سياسي
شمس الدين	بينغ جانج	مستشار الدولة

وبناءً على معلومات ودراسات أعدها العالم الصيني الأستاذ شِنْ دُو تُشو (Chen De Zhe)المتخصص في دراسة أسرة يوان بجامعة نانجين الصينية كان عدد المسلمين الذين تولوا المناصب العليا في الإمبراطورية المغولية قد وصل إلى أكثر من ثلاثين شخصاً تمركز بعضهم في العاصمة دادو بينما أُرسِل مسؤولون آخرون لإدارة مراكز ومدن ومقاطعات خارج العاصمة حيث كانت تحت اختصاصهم وإشرافهم ولايات ومناطق مهمة مثل ولاية قَانْصُو ويُونَنان وسِيتْشوان وشَنْسِي

* أعد هذه القائمة الكاتب الصيني بدر الدين حي الصيني، انظر بدر الدين حي الصيني، تاريخ الإسلام في الصين الماضي والحاضر، مطبعة انتشان، طرابلس لبنان، ١٩٧٤، ص ٢٩.

وجِيكيانغ وخُنان وفُوجِيان ولِيويَانْغ وغيرها. وقد لاحظ الأستاذ شِنْ دُو تُشو(Chen De Zhe)، كما لاحظت بنفسي أن هذه هي المقاطعات والمناطق التي لا تزال تحتوي حتى اليوم على تجمعات كبيرة للمسلمين الصينيين.[1]

وعلى ضوء ما قاله رشيد الدين فضل الله المؤرخ الإيراني الشهير المتوفى في سنة ٧١٨هجرية (١٣١٨م) في كتابه(جامع التواريخ) أنَّ الإمبراطورية المغولية تحت قوبلاي خان كانت مقسمة إلى ١٢ ولاية وكان على ثمانٍ منها حكام مسلمون يساعدهم في أغلب الأحيان وكلاء من المسلمين وهذه الولايات هي:

١- الولاية الثانية التي كانت عاصمتها مدينة (تشوان - تشو) الواقعة على طريق تانينغ أي ليويانغ الحالية في مانشوريا وكان الحاكم عليها هو علاء الدين بن حسام الدين الملقى بدرجة (بينغ جانغ) وكان وكيل الحاكم هو حسن (توجينغ).

٢- الولاية السادسة التي كانت عاصمتها هي (خنساي) وهي مدينة (هَانغ تُشو) الحالية في مقاطعة جيكيانغ وكان الحاكم عليها هو علاء الدين بن سيف الدين القائد العسكري المعروف بدرجة (بينغ جانج) ويعاونه وكيل اسمه عمر (بِيْنغ جَانج) وله مساعد يسمى خواجة طوسي (بينغ جانج).

٣- الولاية السابعة التي كانت عاصمتها (قُوتُشو) الواقعة في مقاطعة فُوجِيان اليوم. وكان حاكمها الأمير عمر، وأما ميناء تُشوانتُشو على ساحل فوجيان فقد كان تحت إشراف بهاء الدين القندوزي.

---

(١) جعفر كرار أحمد، تاريخ العلاقات الصينية العربية، رسالة دكتوراه، جامعة نانجين، إشراف الأستاذ Chen De Zhe والأستاذ المساعدHua Tao جامعة نانجين، ١٩٩٥، انظر الملاحق قائمة بأسماء المسؤولين العرب والمسلمين الكبار المشهورين إبَّان الحقبة المغولية في الصين، انظر أيضاً حوارات الباحث مع العالم الصيني الأستاذ/Chen De Zhe .

٤- الولاية الثامنة التي تسمى تانكوت، كان عليها حاكم مسلم يسمى حسن شقيق بيان يعاونه وكيل يسمى حسن أيضاً وهو من إخوان لاشين.

٥- الولاية التاسعة التي سماها العرب صين الصين أو صين كلان أي الصين الكبرى (قُوَانْدُونغ).وكان الحاكم عليها هو ركن الدين التتري (يينغ جَانج).

٦- الولاية العاشرة هي قاراجانغ المعروفة بمدنها الكبيرة وبكثرة سكانها المسلمين (مقاطعة يونان كونمينغ الحالية). وكان الحاكم عليها هو ياقاخان تيجن ويعقوب من أبناء علي بك.

٧- الولاية الحادية عشرة هي تانكوت(شيان الحالية في محافظة شنسي) التي كان الأمير المغولي آناندا ابن منقالا مشرفاً عليها، أما الحكام التنفيذيون فقد كانوا أحد إخوان ديشمان وعمر الخطائى ويورت آناندا.

٨- الولاية الثانية عشرة هي كَانتُشو (قَانْصُو) الحالية وكانت جزءاً من تانكوت وكان الأمير خوجة حاكماً عليها.[١]

هذا إلى جانب وزير المالية شمس الدين الأجل ووزير الحربية علي يحيى اليوغوري ووزير الإسكان يحيى طاهر.[٢] بالإضافة إلى شخصيات لعبت دوراً

(١) Boyle, John Andrew, The Successors of Genghis Khan, op.cit., p281-284.

(٢) Ibid., for more information see Jianping Wang , Concord and Conflict , op.cit.,see also Chen De Zhi,Han Ru Lin and others , the History Of The Yuan Dynasty , People's Publishing House , 1986, Beijing

انظر أيضاً جعفر كرار أحمد ، تاريخ العلاقات الصينية العربية ، دكتوراه ، الملاحق قائمة بأسماء المسؤولين العرب والمسلمين الكبار المشهورين إبان الحقبة المغولية في الصين ، مصدر سبق ذكره.

سياسياً وإدارياً مهماً في تلك الحقبة منهم سعيد بن أبي علي العماني ٦٤٩- ٦٩٩ هجرية (١٢٥١- ١٢٩٩م) الذي كان وزيرا عند سلطان معبر في الهند، وفي ذات الوقت ارتبط بعلاقة جيدة مع البلاط المغولي في الصين، وقد أدت علاقاته القوية مع الإمبراطور في الصين إلى غضب سلطان معبر الذي صادر أمواله وهدده بالقتل، فأرسل إمبراطور الصين يستدعيه للقدوم والعيش في الصين وبالفعل وصل هذا التاجر العماني الثري إلى بكين بعد أن نجح وفد أرسله قوبلاي خان إلى معبر في تهريبه إلى بكين التي وصلها في سنة ٦٩٢ هجرية (١٢٩٢م).[١] ، وعندما تولى الإمبراطور شْغ زُونغ (Cheng Zong) (تيمور) حكم الصين (حكم الصين في الفترة من ٦٩٤- ٧٠٧هجرية (١٢٩٤- ١٣٠٧م) منحه لقب وزير، وقد توفي سعيد في سنة ٦٩٩ هجرية (١٢٩٩م) في بكين عن عمر يناهز الـ ٤٩ عاماً وقد أمر تيمور بتنظيم جنازة رسمية على نفقة الدولة وأصدر أمراً إمبراطورياً للمسؤولين لحماية ورعاية أسرته.[٢]

ومن التجار العرب الذين ذاعت شهرتهم بالصين التاجر العربي الذي تطلق عليه المصادر الصينية اسم(Pushou-Geng) وربما يكون اسمه العربي (أبو شوقي)، وكان يقوم بوظيفة مدير مكتب السفن التجارية في ميناء قُوانغْتشُو(Guangzhou) وذلك في نهاية أسرة سُونغ، كما كان يشرف على التجارة البحرية في مقاطعة قُوانْدُونغ.[٣]

(١) Edited by Vadime Elisseeff, The Silk Roads Highways of Culture and Commerce , Berghahn Books, New York , Oxford , Unesco Publishing , An Inscription In Memory Of Sayyid Bin Abu Ali , A Study of Relations Between China and Oman from the Eleventh to the Fifteen Century , Paper Presented By Liu Yingsheng pp .122-125.

(٢) Ibid.,

(٣) Jitsuzo Kuwabara , On P'u Shou-Keng , Memoirs of the Research Department of the Tokyo Bunko , the Oriental Library , No. 2 , 1928, p. 1,2,4,30-36.

هذا بينما قام بعض التجار المسلمين بدور سفراء ومندوبين تجاريين للدولة المغولية حيث نفذوا مهاماً تجارية ودبلوماسية في فارس والهند وأفريقيا وشبه الجزيرة العربية، فعلى سبيل المثال أرسل في سنة هجرية(١٣٠١م) الإمبراطورشَنغ زُونْغ (ChengZong) التاجر العربي المسلم معز الدين إلى مقديشو في مهمة تجارية لجلب أسود وفهود ونمور وقد زوده بمؤن ومال كما أرسل حكام أسرة يوان تجاراً مسلمين إلى كوريا لجلب اللؤلؤ .[١]

على الصعيد الاقتصادي يبدو أنَّ دور المسلمين في تعزيز علاقات الصين التجارية مع العالم الخارجي وبالتالي إسهامهم في ازدهار الصين اقتصادياً في تلك الحقبة كان أوضح من دورهم و إسهامهم في المجالات الأخرى وتكاد المصادر الصينية والعربية والغربية كلها تتفق على هذا الدور، إذ تشير المصادر العربية إلى أنَّ التجارة العربية الصينية قد استعادت حيويتها بسرعة بعد سنوات الركود التجاري التي أعقبت الاجتياح المغولي للشرق وسقوط بغداد.وعادت المواني الصينية مثل قُوانغْتشُو(Quangzhou) وغيرها إلى العمل وسرعان ما ازدهرت هذه المواني وبدأت التجارة العربية الصينية تستعيد حيويتها المعهودة.

ويحدثنا ابن بطوطة كثيراً عن تجارات المسلمين في الصين في تلك الأيام وينقل لنا صورة زاهية لتجارات مزدهرة ومواني تضج بالحركة، وأحياء كاملة خاصة بالتجار العرب والمسلمين، ويدخلنا معه إلى بيوت تجار عرب ومسلمين أثرياء وأصحاب نفوذ مثل عثمان بن عفان المصري وقوام الدين البشاري من المغرب

---

(١) Chen De Zhi,Han Ru Lin and others , The History Of The Yuan Dynasty , People's Publishing House , 1986, Beijing , pp . 433-434(In Chinese Language) See also Zheng Lingzhi,The History of Korea, chapter 28, see also Han Rulin(ed) The History of Yuan Dynasty, chapter 10(In Chinese)

وكمال الدين عبد الله من أصفهان وشريف الدين التبريزى واحد الدين من سنجار وغيرهم كثر.[١]

ونجد في كتابات ابن بطوطة إشارات واضحة لاستمرار تدفق البضائع الصينية إلى الموانى العربية عندما يقول: " أعظم أسواق مدينة الزيتون سوق الخزف ومنها يحمل إلى سائر بلاد الصين وإلى الهند واليمن".[٢] ، ونلاحظ أن اليمن (عدن) في تلك الحقبة أصبحت مركزاً لاستيراد الخزف الصيني، وكان هذا الميناء لا يزال في ذلك الوقت يحتفظ بموقعه كميناء تجاري مهم مع الصين إذ يقول شمس الدين ابن عبد الله (شيخ الربوة) صاحب كتاب (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) المتوفى سنة ٧٢٧ هجرية (١٣٢٦م) أنَّ عدن "هي فرصة لمن يمروا من مراكب الصين والهند وفارس وكرمان وعمان".[٣]

وكانت في فترة من الفترات يتم في هذا الميناء مقايضة منتجات الهند والصين بمنتجات مصر والحبشة، كما كان التجار يقايضون مع الصين المرجان والخيل والمنسوجات الصوفية وأجواخ البندقية بالحرير والديباج والشاي المنتج في الصين.[٤]

---

(١) انظر حسين مؤنس ، ابن بطوطة ورحلاته، تحقيق ودراسة وتحليل ، دار المعارف ، القاهرة ، بلا تاريخ ، انظر الجزء الخاص بتحقيق حسين مؤنس حول الصين ، ص ص١٩٦– ٢١٢.

(٢) مهذب رحلة بن بطوطة المسماة تحفة النظار، في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار، وقف على تهذيبه وضبط غريبه وأعلامه، أحمد العوامري بك ومحمد أحمد جاد المولى بك، الجزء الثاني، المطبعة الأميرية القاهرة ١٩٣٣، ص ٢٥٤

(٣) شمس الدين بن عبد الله محمد أبوطالب الأنصاري الصوفي الدمشقي المعروف بشيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبع في مدينة بطرس بورغ المحروسة في مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية، ١٨٦٥م، ص ٢١٦.

(٤)توفيق اليوزبكي، تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المماليكي، مطابع وزارة التعليم والبحث العلمي، العراق، جامعة الموصل، ١٩٧٥، ص ص ، ١٠٨، ١١١ .

هذا بينما تشير مصادر أسرة يوان التاريخية الصينية بصورة واضحة إلى مدى نفوذ التجار المسلمين الكبير في تلك الحقبة ودورهم النشط في التجارة داخل وخارج الصين تقول هذه المصادر "سيطر التجار القادمون من الغرب (معظمهم مسلمون) على التجارة في الصين براً وبحراً واحتلوا مواقع اقتصادية وتجارية مهمة في كل المراكز والمدن التجارية الكبرى في الصين ".[١] وتشير هذه المصادر أيضاً في إشارة إلى مدى ثراء التجار المسلمين في الصين في تلك الحقبة إلى " أنَّ هناك تاجراً مسلماً ثرياً كان يمتلك وحده ٨٠٠ سفينة تجارية يستخدمها في التجارة بين الصين وما وراء البحار".[٢] كما يذكر مصدر صيني آخر أنَّ (التجار المسلمين قد سيطروا على التجارة بين محافظة منغوليا(Ling–Bei) والمناطق الوسطي محافظتي شَانْشِي(Shanxi) وخُوبِي (Hebei). وللتدليل على نشاط التجار المسلمين الكثيف في هذه الفترة تشير المصادر الصينية إلى أنه عندما كانت القوات التابعة للقائد الصيني شُو يُوان تَشانْغ ـ الذي أصبح إمبراطوراً على الصين فيما بعد ـ تطارد إمبراطور أسرة يوان الهارب الإمبراطور شَن زُونْغ Chen Zong (تيمور) التقت بحوالى ٥٠٠ تاجر من سمرقند وذلك بالقرب من منطقة بحيرة بَاير (Byir).[٣]

كما يشير آدم متز في كتابه (الحضارة الإسلامية) إلى النشاط التجاري العربي في الصين في تلك الحقبة فيقول " كانت توجد جالية كبيرة من المسلمين المسجلين في ديوان التجارة البحرية ".[٤]ولاشك أنَّ نشاطاً تجارياً بهذا الحجم كان له عائد

---

(١) See Xu Youren , The inscription of Haji Hashim(In Chinese)

(٢) See Zhou Mi (Yuan Writer), Gui- Xing Za – Shi (In Chinese)

(٣) The History of Ming Dynasty, chapter 332 (Account of Besblikh)

(٤) توفيق اليوزبكي، تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المماليكي، مصدر سبق ذكره، ص ٨٥.

اقتصادي كبير على الصين هذا بالإضافة إلى ما توفره الضرائب المفروضة على السلع والسفن التجارية من موارد مالية ضخمة للدولة.

هذه صورة عامة عن وضع المسلمين في السلم الإداري وعلاقتهم بالسلطة الحاكمة ودورهم الاقتصادي في تلك الحقبة.فما هو وضع المسلمين والإسلام في الصين خلال هذه الحقبة ؟

تسعفنا هنا أيضاً المصادر الصينية والعربية والفارسية بمادة خصبة حول وضع المسلمين والإسلام في الصين وقد رسمت هذه المصادر صورة لمد إسلامي شمل كل الصين فقد حمل الجنود والفنيون والإداريون الجدد دينهم أينما حلوا وبُنيت مئات المساجد الجديدة في جميع أنحاء الصين من منغوليا الحالية إلى يونان ، كما أسلمت أعداد غير قليلة من أبناء المغول والأتراك والصينيين من مختلف القوميات.[١]

ولم تعد المساجد مركزة في هذه الحقبة في المدن الواقعة على خطوط المواصلات البحرية والبرية كما هو الحال في عهد أسرتي تَانغ وسُونغ بل عمت المساجد قرى ومدناً داخلية، وأصبح الإسلام موضع اهتمام الحكام المغوليين الذين أسلم بعضهم مثل الأمير آناندا والي منطقة تانغوا (نِينغْشِيا) اليوم والذي نشر الإسلام في أوساط جنوده ورعاياه، ويقول إبراهيم فنغ جين يوان الباحث الصيني: إنَّ أكثر من ١٥٠ ألفاً من الضباط والجنود قد أسلموا على يديه.[٢] هذا في وقت كانت فيه أفواج جديدة من المسلمين تدخل أيضاً الإسلام على يد قواد عسكريين ومدنيين عرب ومسلمين في محافظات أخرى.

---

(١)جعفر كرار أحمد، تاريخ العلاقات الصينية العربية، رسالة دكتوراه، جامعة نانجين، مصدر سبق ذكره (انظر الفصل الخاص بالعلاقات الصينية العربية خلال حقبة حكم أسرة يوان الملكية).

(٢)إبراهيم / فنغ جين يوان، تعريب محمود يوسف / لي هوا ين، الإسلام في الصين، الطبعة الأولى، ١٩٩١ ، مصدر سبق ذكره، ص ١٩.

ومع ازدهار اقتصاد أسرة يوان ونمو التجارة مع منطقة غرب آسيا وتنامي نفوذ المسلمين في بلاط قوبلاي خان تدفق إلى الصين أيضاً المزيد من المسلمين دون أن يكون لذلك أية علاقة بالفتوحات المغولية العسكرية. وبلغ المسلمون والإسلام من الاحترام عند المغول أن بنوا مسجداً داخل قصر قوبلاي خان في العاصمة شَانْغ دُو (Shang Du) دُولُون (Duolun) الحالية في منغوليا الداخلية.[١] وكان ابن بطوطة آخر الرحالة المسلمين الذين زاروا الصين في العصر المغولي في الصين وقد زارها في سنة ٧٤٨ هجرية (١٣٤٧م) وذلك إبّان حكم الإمبراطور شَن دِي(Shun- Di) (توقون تيمور) ٧٣٤- ٧٧٠هجرية (١٣٣٣- ١٣٦٨م) وقد وجد ابن بطوطة الإسلام أيضاً مزدهراً ويحظى باحترام لا تخطئه العين. وتعتبر كتابات ابن بطوطة حول الإسلام في الصين ذات قيمة هامة في دراسة تاريخ العرب والإسلام في الصين إبّان الحقبة المغولية. وينقل لنا ابن بطوطة صورة زاهية حول أحوال الإسلام والمسلمين في تلك الحقبة فهو يقول: " وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون فيها بسكناهم. ولهم فيها مساجد لإقامة الجمعات وسواها وهم معظمون محترمون".[٢]

ويقول عند حديثه عن مدينة الزيتون قُوانتُشو (Quangzhou) " والمسلمون ساكنون بمدينة على حده " ويضيف " وجاء إلي قاضي المسلمين تاج الدين الأردويلى، وهو من الأفاضل الكرماء، وشيخ الإسلام كمال الدين عبد الله

(١) Rossabi, Morris, the Muslims in the Early Yuan Dynasty, op.cit., p.273

(٢) مهذب رحلة بن بطوطة المسماة تحفة النظار، في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٨.

الأصفهانى وهو من الصلحاء ".[١] ويقول أيضاً وهو يصف حال المسلمين في مدينة صين كلان أو صين الصين قُوانتُشو (Guangzhou): " وفي بعض جهات هذه المدينة بلدة المسلمين، ولهم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق، ولهم قاض وشيخ. ولابد في كل بلد من بلاد الصين من شيخ الإسلام، تكون أمور المسلمين كلها راجعة إليه وقاض يقضي بينهم. وكان نزولي عند أوحد الدين السنجارى ".[٢] ونلاحظ أن ابن بطوطة يرسم لنا صورة عن المسلمين وحالهم أينما حل في تنقلاته في الصين من بكين إلى قُوانتُشو (Guangzhou) إذ يقول أيضاً " فوصلنا بعد سفر عشرة أيام إلى مدينة قنجنفو (ربما مدينة فُوشُو (Fuchou) على حسب تقدير جيب) " وهى مدينة كبيرة حسنة في بسيط أفيح، والبساتين محدقة بها. فكأنها غوطة دمشق. وعند وصولنا خرج إلينا القاضي وشيخ الإسلام والتجار، ومعهم الأعلام والطبول والأبواق و(الانقار) وأهل الطرب، وأتوا بالخيل فركبنا، ومشوا بين أيدينا ولم يركب معنا غير القاضي والشيخ " ويضيف بعد أن يصف لنا أماكن سكن الأمير وجنوده وخدمه " ويسكن في داخل السور الثالث المسلمون وهناك نزلنا عند شيخهم ظهير الدين القرلاني".[٣]وفي خَنْسَا (خَانْجُو) التي وصلها ابن بطوطة بعد سبعة عشر يوماً يقول" عند وصولنا إليها خرج إلينا قاضيها فخر الدين، وشيخ الإسلام بها، وأولاد عثمان بن عفان المصري. وهم كبراء المسلمين بها ومعهم علم أبيض والأطبال (والأنقار) والأبواق".[٤]

---

(١)نفس المصدر، ص ٢٥٣.

(٢)نفس المصدر، ص ٢٥٥.

(٣)نفس المصدر، ص ص ٢٥٦- ٢٥٧.

(٤)نفس المصدر، ص ٢٥٨

ويشير ابن بطوطة إلى أنَّ مدينة الخَنْسَاء كانت مقسّمة إلي ست مدن على كل مدينة سور ويحدق بالجميع سور واحد ويقول: " وفي اليوم الثالث دخلنا المدينة الثالثة، ويسكنها المسلمون. ومدينتهم حسنة وأسواقهم مرتبة كترتيبها في بلاد الإسلام. وبها المساجد والمؤذنون ، سمعناهم يؤذنون بالظهر عند دخولنا . ونزلنا منها بدار أولاد عثمان بن عفان المصري، وكان أحد التجار الكبار. وقد استحسن هذه المدينة فاستوطنها وعرفت بالنسبة إليه. وأورث عقبه بها الجاه والحرمة. وهم على ما كان عليه أبوهم من الإيثار للفقراء والإعانة للمحتاجين. ولهم زاويةِ تعرف بالعثمانية، حسنة العمارة لها أوقاف كثيرة، وبها طائفة من الصوفية. وبنى عثمان المسجد الجامع بهذه المدينة، ووقف عليه وعلى الزاوية أوقافاً عظيمة وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير وكانت إقامتنا عندهم خمسة عشر يوماً ".(١)

كما ترك لنا صاحب نزهة القلوب (مخطوطة فارسية) أيضاً إشارات حول حالة الإسلام في الصين في ذلك الوقت، إذ يقول: " خنساي عاصمة بلاد الصين ولا توجد في العالم كله مدينة أعظم منها ولكن الجميع يتفقون على أنها أكبر مدن الأقطار الشرقية وسكانها من الكثرة بحيث بلغ عدد الحراس آلاف ومعظم هؤلاء السكان من الوثنيين ولكن المسلمين أقوى منهم وإن كانوا أقل عدداً".(٢)

كما أن هناك كتاباً صغيراً كُتب بالفارسية ونشره أندريه ميلر بعنوان تاريخ خُطاي (Historica Chataica) (أُلف في حوالي٧١٧- ٧١٨ هجرية (١٣١٧- ١٣١٨م) يشير إلى وجود ثلاثة مساجد في العاصمة خنساي "وفي خنساي ثلاثة مساجد من الدرجة الأولى تمتلئ يوم الجمعة بالمصلين".(٣)

---

(١)نفس المصدر، ص ٢٥٩.

(٢)جامع التواريخ، رشيد الدين فضل الله الهمذاني، تاريخ المغول، المجلد الثاني – الجزء الأول، الإيلخانيون، تاريخ هولاكو مع مقدمة رشيد الدين، مصدر سبق ذكره ص ١١٢.

(٣)نفس المصدر، ص ١١٣.

هذا وكانت قد تأسست قبل سنة ٧١١ هجرية (١٣١١م) دار للقضاء الإسلامي الحكومي وقد أعيد تأسيسها مرة أخرى ودعمها في الحقبة من ٧١٢- ٧٢٩ هجرية (١٣١٢- ١٣٢٨م).[١] كما أصدر الإمبراطور قَانْغ شَنْغ Gang (Sheng) أمراً إمبراطورياً بدعم مدرسة قومية الهُوي (Hui) المسلمة حتى تقوم بدورها العلمي الرائد.[٢] كما أنشأ في سنة ٦٦٩ هجرية (١٢٧٠م) قوبلاي خان أكاديمية للصيدلة الإسلامية بعاصمتي الصين دَادُو و شَانْغ دُو (Dadu و Shang Du). كما بنى المسلمون عدداً من المدارس في أنحاء الصين منها مدرسة مشهورة في منطقة شَن تينغ (Chen Ting) (خُبي الحالية) كانت تدرس فيها اللغات العربية والفارسية بالإضافة إلى العلوم الإسلامية.[٣] هذا كما أسس الإمبراطور مستشفى إسلامياً في كل من دَادُو (Dadu) وشَانغ دُو(Shang Du) لعلاج أفراد البلاط الملكي.[٤] كما تأسست في سنة ٦٨٨ هجرية (١٢٨٩م) الكلية الوطنية لدراسة الخط العربي والفارسي، وربما اللغة العربية والفارسية ككل.[٥] كما أُنشئت في السنة نفسها مدرسة حكومية للشبان المسلمين وأعلن في سنة ٧١٤ هجرية (١٣١٤م) إنشاء جامعة للطلاب المسلمين.[٦] وهكذا ترسم لنا المصادر العربية

---

(١)الإسلام في الصين، إبراهيم / فنغ جين يوان، تعريب محمود يوسف / لي هوا ين، الطبعة الأولى، ١٩٩١، مصدر سبق ذكره، ص ١٨.

(٢)جامع التواريخ، رشيد الدين فضل الله الهمذاني، تاريخ المغول، المجلد الثاني – الجزء الأول، الإيلخانيون، تاريخ هولاكو مع مقدمة رشيد الدين، مصدر سبق ذكره ص ١٢٤.

(٣) Rossabi, Morris, the Muslims in the Early Yuan Dynasty, op.cit. ,p p. 273-274. 64-

(٤) Ibid., p. 284

(٥) Ibid., p.286

(٦) Ibid., p. 285, see also Che'n Yuan, Translated and annotated by Ch'ien Hsing – hai and L. Carrington Goodrich ,Western and Central Asians in China Under the Mongols , Their Transformation into Chinese , First -

والصينية صورة زاهية حول الإسلام والمسلمين في الصين خلال هذه الحقبة مما يشير إلى أنَّ المسلمين في مراحل من الحكم المغولي للصين كانوا يتمتعون بذات المزايا التي ألفوها إبَّان أسرتى تَانغ وسُونغ من حيث الاستقلالية في أمور دينهم ومعاشهم والاحترام وقد دعم هذا الاتجاه النفوذ السياسي والاقتصادي للمسلمين في البلاط الإمبراطوري المغولي.

وكما صورت المصادر العربية التاريخية العائدة إلى تلك الحقبة وضع المسلمين في الصين، رسمت أيضاً صورة زاهية لعصر اقتصادي مزدهر ولمملكة يسودها العدل والاستقرار حيث تحدث عن عدل أهل الصين في تلك المرحلة أبو الفداء المتوفى في سنة ٧٣٣ هجرية (١٣٣٢م) مشيراً إلى أنَّ " أهل الصين أحن الناس سياسة وأكثرهم عدلاً وأحذق الناس في الصناعات ".[١] ويبدو ابن بطوطة مندهشاً من حالة الاستقرار والأمن التي وجدها سائدة آنذاك في الصين إذ يقول ابن بطوطة: " وبلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالاً للمسافرين، فإنَّ الإنسان يسافر منفرداً مسيرة تسعة أشهر، وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها. وترتيب ذلك أنَّ لهم في كل منزل ببلادهم فندقاً، عليه حاكم يسكن به في جماعة من الفرسان والرجال فإذا كان بعد المغرب أو العشاء الآخرة، جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه، فكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين، وختم عليها وأغلق باب الفندق عليهم. فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه، فدعا كل إنسان باسمه، وكتب بها تفسيراً، وبعث معهم من يوصلهم إلى المنزل التالي له، ويأتيه

Published By Monumenta Serica At the University Of California Los Angeles, 1966, p. 211.

(١) المختصر في أخبار البشر، تأليف عماد الدين إسماعيل أبي الفداء المتوفى عام ٧٣٢ هـ (١٣٣٢ م) الجزء الأول، الطبعة الأولى، المطبعة الحسينية المصرية، بلا تاريخ، ص ٩٦.

ببراءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا إليه. وإن لم يفعل طالبه بهم. وهكذا العمل في كل منزل ببلادهم، من صين الصين إلى خان بالق. وفي هذه الفنادق جميع ما يحتاج إليه المسافر من الأزواد".[1] وفي الوقت الذي يشيد فيه أبو الفداء وابن بطوطة بالأمن واستقرار التجارة في الصين، يؤكد القزويني (توفى في سنة ٦٨٢ هجرية "١٢٨٣"م) على ذات الحالة مشيراً إلى " أنَّ بها الخيرات الكثيرة من الحبوب والبقول والفواكه والسكر" ويضيف " أما ملكها فموصوف بالعدل والسياسة".[2]

إسهامات المسلمين الصينيين في الحضارة الصينية :

كان لابد لوجود إسلامي بهذه الكثافة في الصين في هذه الحقبة أن يؤثر ويتأثر بالبيئة الثقافية التي حوله، أما أبرز إسهاماتهم في تلك الفترة فقد كانت في مجالات الفلك والطب الإسلامي، حيث قام قوبلاي خان في ٦٥٩- ٦٩٤ هجرية (١٢٦٠- ١٢٩٤م) بتأسيس معهد ودائرة رسمية للفلك الإسلامي وذلك في ٦٧٠ هجرية (١٢٧١م) وقد ضمت هذه الدائرة فلكيين مسلمين إلى جانب فلكيين صينيين وشملت إدارة للفلك والتقويم. ويشير تاريخ أسرة يوان إلى أن هُولُوقو(Hulogu) خان حاكم فارس قد أرسل عالماً فلكياً فارسياً مسلماً يدعى جمال الدين* وقد أحضر معه في عام١٢٦٧م سبعة أجهزة فلكية مثل المنوأة المتعددة الحلقات والمنوأة الموجهة والكرة السماوية والكرة الأرضية وقد استخدمها جمال الدين في عمله في مرصد بنته الحكومة. وقد استخدم المغول التقويم الإسلامي الذي

---

(١)مهذب رحلة بن بطوطة المسماة تحفة النظار، في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٢.

(٢)زكريا بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٠، ص ص، ٤٦، ٥٤.

* قد يكون جمال الدين بن محمد البخاري الذي رفض أن يضطلع بالمسؤولية الكاملة عن بناء مرصد مراغه في عام ١٢٥٨م

أعده جمال الدين باسم تقويم وَانْ نِيانْ ويعنى عشرة آلاف سنة. وكان التقويم الهجري مرجعاً مهماً لوضع التقويم الصيني على مدار أربعمائة سنة ابتداء من أواسط القرن الثالث عشر.(١) وكان قد سبقه تقويم آخر من أسرة سُونغ صنعه فلكي مسلم أيضاً هو محمد يى زه القادم من جنوب الأناضول أو شمال سوريا.(٢) كما صنع جمال الدين زيجاً جديداً سماه الزيج الدائم وأدخل أقرانه الزيج الحاكمي لابن يونس ويقع في أربع مجلدات وكان قد صنعه للحاكم بأمر الله الفاطمي وقد أشار إليه الفلكي الصيني كُوشُيوشِينغ (Kuo Shou Ching) سنة ٦٧٠ هجرية (١٢٨٠م) الذي عمل مع جمال الدين واستخدم هو نفسه الفلك الإسلامي في الحساب والعدّ وفي إعداد تقويمه الخاص الشُوشِي لِي(The Shou Shih Li).

وقد استمر استخدام الزيج الإسلامي جنباً إلى جنب مع الزيج الصيني خلال أسرة مِينغ الملكية ٧٧٠- ١٠٥٤ هجرية (١٣٦٨- ١٦٤٤م).(٣) كذلك جُهز مرصد بكين في ذلك الوقت بستة وعشرين كتاباً عربياً أُدرجت في قائمة كتب ضمت حوالي ٢٤٢ كتاباً.(٤) كما أدخل الفلكيون المسلمون نظام الأسبوع على

---

(١) Yang Zhou and others, edited by Bai Shouyi, An Out line History of China, foreign language press, Beijing, China, 1982, p.324, see also
هادي العلوي ، من تاريخ العلاقة بين الحضارتين الصينية والإسلامية ، مجلة المدى ، بلا تاريخ ، ص ٣٢ ،
انظر ايضاً جمال الدين بأي شو يي ، مساهمات المسلمين الصينيين في التاريخ ، مقال في كتاب سلسلة ثقافية (١) منشورات مجلة بناء الصين، دار النشر باللغات الأجنبية ، بكين ، ١٩٨٢ ، ص ص ١٠٤- ١٠٥.

(٢) هادي العلوي ، المستطرف الصيني ، من تراث الصين ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٠١

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٠٢.

(٤) إبراهيم فنغ جين يوان ، تعريب محمود يوسف لي هوا ين ، الإسلام في الصين ، بكين دار النشر باللغات الأجنبية ، الطبعة الأولى ١٩٩١م ، مصدر سبق ذكره ، ص ص ١٣١- ١٤١ ، انظر لمزيد من إسهامات المسلمين في مجال الفلك

التقويم الصيني ولم يكن الصينيون يعرفونه قبل ذلك.[1] ويبدو أنَّ الحقبة المغولية أتاحت أيضاً للصينيين أن يشاركوا بدورهم في الفلك الإسلامي، إذ يشير هادى العلوي إلى أنَّ المصادر العربية ذكرت اسم فلكي صيني كان من أعضاء مجمع مراغه الذي أسّسه نصير الدين الطوسي وساهم معه في بناء مرصد مراغه الشهير بتمويل من هولاكو حيث كان نصير الدين يشتغل في معيته. والفلكي المذكور هو تُوماجَه وفى المصادر العربية تومنجى.[2] ولابد أن يكون توماجه قد ترك بعض تأثيره في الفلك الإسلامي كذلك.

هذا كما قام المنجم السوري الشهير عيسى Isa بزيارة للصين في سنة ٦٤٤ هجرية (١٢٤٦م) والتقى الإمبراطورة سُولو خُه تِينِى(Suolu He Tieni) وأسهم في تطوير علوم الفلك كما قام بترجمة عدد من كتب الطب وذلك لمعرفته الواسعة بعدد من اللغات الآسيوية.[3] كما ساهم أيضاً علماء عرب مسلمون آخرون في تلك الحقبة منهم العالم يوسف الذي جاء إلى الصين من بيزنطة وعمل في البلاط الإمبراطوري من سنة ٦٤٨- ٧٠٨ هجرية (١٢٥٠ إلى ١٣٠٨م) وتقديراً لجهوده منح لقب عضو الأكاديمية الإمبراطورية.[4]

Yangzhi Jiu, A study of the Hui Nationality in the Yuan Dynasty: Its Formation and Humanics, Nankai University publishing house, 2002 pp291-300 (In Chinese)

(١)هادي العلوي، المستطرف الصيني، من تراث الصين، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠٢

(٢)نفس المصدر، ص ٣٠٢.

(٣) Zhang Guangda, and outline of the Historical Relations Between China and Arab Countries, edited by Zhou Yiliang, The History Of Sino – Foreign Cultural Intercourse (Hunan The People's Publishing House), 1987, p. 779 (In Chinese)

(٤)جياو جيان، العلاقات الثقافية الخارجية في فترة أسرة يوان، مجلة بناء الصين، يوليو ١٩٨٠، ص ٧٠.

كما أسهم المسلمون كذلك في هذه الحقبة في نقل علم الرياضيات المتقدم حيث استفاد الفلكي والرياضي الصيني العظيم قُو شُو جِينْغ (Guo Shou Jing) من علم الرياضيات العربية وخصوصاً أصول المثلثات القوسية الشكل التي ابتكرها المسلمون لقطع الدائرة. وكان قد انتقل خلال أسرة يوان ١٥ كتاباً عربياً في الرياضيات بما فيها أصول الهندسة كما دخلت في هذه الحقبة الأرقام العربية.[١] كما أسهم المسلمون أيضاً في تطوير علم الجغرافيا و الخرائط في الصين حيث نقل المسلمون في هذه الحقبة معلومات مهمة حول آسيا الوسطى والشرق الأوسط حيث استفاد الجغرافيون الصينيون بشكل كبير من المصادر الجغرافية الإسلامية التي حملها العرب والمسلمون معهم إلى الصين.[٢] ونعتقد أن أطلس الجغرافي الصيني العظيم شُو سُو بِين (Chu Ssu Pen) الذي ألفه في الحقبة من سنة ٧١١- ٧٢٠ هجرية (١٣١١- ١٣٢٠م) قد حمل الكثير من هذه المعلومات.

كما انتشر في هذه المرحلة تقليد الخزف الصيني في دمشق وبغداد وإيران وتركيا واتسعت دائرة تقليده في مصر في عصر المماليك.[٣] كما ازدهرت صناعة الورق والطباعة التي انتقلت منذ عهد أسرتي تَانغ وسُونغ ولا عجب في ذلك فإنَّ المغول الذين أجبروا آلاف الفنيين والعلماء والصناع المسلمين للتقدم معهم نحو الصين كانوا قد أجبروا أيضاً آلاف الصنّاع والفنيين والفنانين والنقاشين الصينيين للتقدم

---

(١)الإسلام في الصين، إبراهيم / فنغ جين يوان، تعريب محمود يوسف / لي هوا ين، الطبعة الأولى، ١٩٩١م، مصدر سبق ذكره، ص ص ١٣٦- ١٣٧.

(٢) Rossabi, Morris, the Muslims in the Early Yuan Dynasty op.cit., P.286-287, see also Yangzhi Jiu, A study of the Hui Nationality in the Yuan Dynasty op.cit., pp 303-312.

(٣)دار الآثار العربية، زكي محمد حسن، كنوز الفاطميين، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٧، ص ١٧٢.

معهم نحو العراق بل كان من ضمنهم فنيون وخبراء في صناعة السلالم والآلات الخشبية التي يعبر بها الجنود الحصون العالية.[١]

وكما أشرنا سابقاً فإنَّ المغول قد اهتموا بالطب الإسلامي حيث أمر قوبلاي خان بإنشاء مركز لهذا الطب في بكين وتأسيس دائرة للعقاقير الإسلامية في منغوليا. كما أُنشئت بأمره كليتان للصيدلة الإسلامية واحدة في دَادُو (Dadu) والثانية في شَانغ دُو (Shang Du) في منغوليا الداخلية.[٢] إلا أنَّ الصينيين لم يكونوا في الواقع متلقين فقط من مدرسة الطب الإسلامية إذ نهل المسلمون أيضاً من معين الطب الصيني حيث يقول رشيد الدين بعد أن قدم فهرسة عامة لجميع مؤلفاته" وقد رأينا أن نضيف إلى مجموعتنا كتباً مفردة غير مشتملة على مجلدات، ولم تكن لها نسخ موجودة في هذه الممالك إلى الآن. وقد سعينا فيها سعياً كثيراً حتى حصل نسخها، ونقلت من لسان أهل الخُطا (الصين) إلى لغة الفرس ثم إلى لغة العرب" وأشار إلى:

الكتاب الأول: طب أهل الخُطا من العلميات والعمليات.

الكتاب الثاني: الأدوية المفردة الخُطائية مما هي مستعملة عندنا وما ليس بمستعمل.

---

(١) Gaafar Karrar Ahamed, Sino Arab Relation During Tang Dynasty, 618-907 A.D, Journal of Tang Studies, Volume V, Peking University Press, Beijing, 1999, pp. 346-354

انظر أيضاً بدر الدين حي الصيني، العلاقات بين العرب والصين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٥٠، ص ٢٦٠، حوار أجراه جعفر كرار أحمد مع العالم الصيني الأستاذ شن دو تشي Chen De Zhi المتخصص في دراسات أسرة يوان.

(٢) Rossabi, Morris, the Muslims in the Early Yuan Dynasty, op.cit., p284

الكتاب الثالث: الأدوية المفردة من القسمين المذكورين.

الكتاب الرابع: في السياسات وتدبير الملك وصلاحه على ما جرت به عاداتهم".[١] هذا وكان قد عثر بعد انهيار الدولة المغولية في الصين على ٣٦ مجلداً للطب الإسلامى في البلاط الإمبراطوري في العاصمة دَادُو(Dadu).[٢]

المسلمون والثقافة الصينية :

وبالطبع لم يكن المسلمون الصينيون خلال أسرة يُوان ببعيدين عن الثقافة الصينية إذ اندمج الكثير من المسلمين في مجرى الثقافة الصينية العام وذابت أعداد كبيرة منهم في الثقافة الصينية وتعرضوا للتصيين الذاتي الطوعي (Sinicization)

وكما أشرنا كان للمسلمين في الصين وجود سابق للحقبة المغولية في الصين وأن آلاف المسلمين الذين جاءوا إلى الصين قسراً مع القوات المغولية أو طوعاً بعد استتباب الأمن في الصين، قد رفدوا تيار الحضارة الإسلامية التي بدأت تنمو في الصين وكان أحفاد المسلمين الأوائل في الصين قد تصينوا وأصبحوا جزءاً من تيار الحضارة الصينية. ويبدو أن المسلمين الصينيين خلال هذه الحقبة قد تأثروا بشكل ما بالأفكار والتعاليم الكنفوشوسية بل أصبح بعضهم من ضمن أساتذتها الكبار، ومن هؤلاء قائد وحدة المدفعية في خُونان شُوشِي تَاي (Shu Shih Tai) وقد بلغ شغف هذا القائد المسلم بالكنفوشوسية أنه استخدم أمواله الخاصة لتأسيس أكاديمية استغرق بناؤها عشر سنوات. كما بنى ابنه Mu Yen Tieh Mu ربما معين تيمور

---

(١)جامع التواريخ ، رشيد الدين فضل الله الهمذاني ، تاريخ المغول ، المجلد الثاني – الجزء الأول ، الإيلخانيون ، تاريخ هولاكو مع مقدمة رشيد الدين ، مصدر سبق ذكره ص ١٧٢.

(٢) Rossabi, Morris, the Muslims in the Early Yuan Dynasty, op.cit., p 284.

مكتبة خصصها للكلاسيكيات والكتب القديمة وقد عاش الأب والابن في حقبة الإمبراطور يَنْ يُو (Yen Yu) ٧١٤- ٧٢٠ هجرية (١٣١٤- ١٣٢٠م).[١]

كما حفلت المصادر الصينية بأسماء عدد من المسلمين الذين برعوا في مجال الأدب الصيني واحتلوا مكاناً مرموقاً في تاريخ الشعر الصيني منهم سعد الله (Sa-tu-la) وتنغ هو نيان (Ting Ho-Nien) وشمس الدين على شاه (Chi-ya-mo-ting-ai-li-sha) و لوشي تاو (Lu-Chig-tao) وجمال الدين بيه لي شاه تشانغ تشي (Che-ma-Lu-ting,Pieh-Li-sha,Chang Chi-sha) و ماي لو(Mai-Lu) وغيرهم من الأدباء والشعراء والرسامين. إلا أنَّ أكثرهم شهرة كان هو سعد الله (Sa-tu-la) الملقب بـ تيان شي (Tien Shi) ٦٧١- ٧٤٩ هجرية(١٢٧٢- ١٣٤٨م).

وتشير المصادر الصينية إلى أنه نشأ في أسرة مسلمة متدينة ووصف الأديب الصيني مَاو شِي (Mao Chih) ١٠٠٨- ١٠٧٠ هجرية (١٥٩٩- ١٦٥٩م) هذا الشاعر بأنه كان " أشهر شعراء الجنوب في عصره، وأن مدرسته الشعرية متفردة وأصيلة ومختلفة ويتصف شعره بالأناقة والنقاء والأصالة والعمق".[٢] (٨٧) وقد امتاز شعره بالبعد الإنساني وبانحيازه إلى فقراء الناس، وبحسه الشعري الأنيق وروحه الإنسانية التواقة للعدل وقد احتل هذا الأديب المسلم مكاناً مرموقاً في تاريخ الأدب الصيني، وقد رفد هذا الشاعر المسلم الغاضب الثقافة الصينية بعدد من المؤلفات الشعرية لا يزال أحدها يتداول حتى يومنا هذا وهو عمله المسمى

---

(١) Che'n Yuan, Translated and annotated by Ch'ien Hsing – hai and L. Carrington Goodrich ,Western and Central Asians in China Under the Mongols , op.cit.,p. 63.

(٢) Ibid., p p. 150-151.

Yen Men Chi.[١] كما حظي شاعر مسلم آخر هو تِينغ خُو نِيان (Ting Ho Nien) المولع كذلك بالتعاليم الكنفوشوسية بقدر كبير من الشهرة وقد ظهر هذا الشاعر المسلم في أواخر أسرة يُوان، وقد تأثر بمدرسة الشعر الصيني القديم وأصبح أحد أبرز روادها في تلك الحقبة ويصف أدباء تلك الحقبة والتي أعقبتها أسلوبه وتعابيره الشعرية بأنها غير مسبوقة. ولا يزال هنالك عملان من أعماله يجري تداولهما حتى اليوم وهما وتنغ هو نيان(Ting Ho-nien chi) و تنغ شياو تزو شي تشي(Ting shiao- tzu shih-chi).[٢] بالإضافة إلى الشعر برز رسامون وخطاطون مسلمون برعوا في مجال الرسم الصيني ومن أبرزهم كَاو كُو كُونغ (Kao Ko- Kung) الذي كان شاعراً ورساماً كما كان أيضاً متخصصاً في الفلسفة الكنفوشوسية والتاريخ والأدب الصيني القديم.[٣] هذا وقد كان هناك إداري ومؤرخ عربي مسلم آخر يدعى شمس (Shan-Si) ٦٧٧- ٧٥٢ هجرية (١٢٧٨- ١٣٥١م) وقد كانت له إسهامات في إثراء الساحة العلمية والثقافية في الصين حيث كان ملماً بالأعمال الأدبية القديمة خصوصاً مؤلفات Yi-Jing وقد ألف ١٢ كتاباً تراوحت محتوياتها بين الكنفوشية، الطاوية، التنجيم، الجغرافية، التاريخ وعلم تخزين المياه (مثل كتابه المعروف ملاحظات حول الوقاية من فيضانات الأنهار) وكتابه الشهير أطلس البلدان الغربية (Xi-Guo-Tu-Jing) و سير حياة العظماء بالبلدان الغربية (Xi-Guo-Yi-Ren-Zhuan).[٤] وأعتقد أنَّ

---

(١) Ibid., p. 303.

(٢) Ibid., pp. 150, 154,155,156, 300.

(٣) Ibid., p. 210

(٤)Yuan Shi (History of Yuan Dynasty) Chapter 190, p.406

الكتاب الأخير كان يحتوى على سيرة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وغيره من المؤلفات، هذا بالإضافة إلى الوظائف الإدارية المهمة التي تقلدها، وحسبما يذكر الأستاذ شّن دُو تِشي (Chen De Zhi) فإن تلك الكتب ربما كانت تحتوى معلومات جغرافية وتاريخية قيمة حول المنطقة العربية.إلا أنَّ كتابيه (أطلس البلدان الغربية) و(سير حياة العظماء بالبلدان الغربية) لم يصلا إلينا.(١)

ولم تتخلف نساء المسلمين في تلك الفترة أيضاً عن المشاركة والتأثير والتأثر بتيار الثقافة الصينية الجارف، فقد برعت منهن شاعرات وأديبات وقد ذكر كتاب تاريخ أسرة مِينغ والمصادر الصينية الأخرى أديبة مسلمة صينية عاشت إبَّان أسرة يُوان وهى يُوه يي (Yueh– E) ابنة جمال الدين مفتش منطقة ووشَانغ (Wuchang) وكانت تَكتبُ باللغة الصينية، كما كانت عارفة بالكلاسيكيات الصينية.(٢) لقد حفظت لنا حقاً المصادر الصينية العائدة لأسرة يُوان عشرات الأسماء والشخصيات التي أسهمت في مجرى الثقافة والحضارة الصينية، وفي الازدهار الاقتصادي للصين وما أشرنا إليه سابقاً ما هو إلا نماذج. لطبيعة التأثيرات المتبادلة بين الثقافة الصينية والإسلامية في ذلك الزمن.

شخصيات إسلامية مهمة في أسرة يُوان :

لقد اخترنا في هذا الجزء من الدراسة أن نسلط الضوء على شخصيتين إسلاميتين لعبتا دوراً هاماً في الصين وقد كان اختيارنا لأحدهما بسبب دوره المهم

---

(١)Ibid

انظر أيضاً جعفر كرار أحمد ، تاريخ العلاقات الصينية العربية ، رسالة دكتوراه ، جامعة نانجين ، مصدر سبق ذكره ص. ٥٩

(٢) Che'n Yuan, Translated and annotated by Ch'ien Hsing – hai and L. Carrington Goodrich, Western and Central Asians in China under Mongol, op.cit, p 282>

في انتشار الإسلام في الصين وكذلك لتمثيلها قيم الإسلام الأصيلة في العدل واحترام الآخر وهما السيد الأجل عمر شمس الدين ٦٠٨- ٦٧٨ هجرية (١٢١١- ١٢٧٩م)* أو الأمير العربي شِيانْغ يَانْغ (Xiang Yang) كما يطلق عليه العامة من الناس والمصادر الصينية ، أما الشخصية الثانية فتطلق عليها المصادر الصينية اسم Yeh-hei-tieh-erh ويأتي اهتمامنا بها لأنها وضعت بصماتها في تاريخ العمارة في الصين، وبسبب أن المصادر الصينية الحديثة لا تلقي بالاً لهذا المهندس العظيم كما لا يكاد يكون معروفاً في بلاد المسلمين.

السيد الأجل عمر شمس الدين :

تشير المصادر الصينية إلى أنَّ السيد الأجل عمر شمس الدين تعود أصوله إلى المملكة العربية السعودية الحالية ويعود نسبه حسب هذه المصادر إلى الرسول الكريم.(١) وقد ولد عمر شمس الدين في بخارى (أوزبكستان الحالية) ويبدو أنَّ أسرته التي كانت تتمتع بمركز ديني وسياسي مرموق قد هاجرت إلى آسيا الوسطى مع الفتوحات الإسلامية الأولى. وحسب بعض المصادر فإنَّ أسلافه كانوا حكاماً

---

* سيد أجل عمر شمس الدين هكذا يكتب السواد الأعظم من الباحثين الصينيين اسمه ، ويفسر هؤلاء الباحثين كلمة سيد بأنها تعني السليل العظيم للرسول (صلى الله عليه وسلم) بهذا تكون كلمة سيد وكلمة أجل ضمن الاسم لهذا السياسي البارز حسب القراءة الصوتية للباحثين الصينيين. ونعتقد أنَّ اسمه هو عمر شمس الدين أما السيد أجل فهو لقب العلويين في آسيا الوسطي (السيد الأجل). والسيد الأجل هو تعبير احترام مثل المبجل ، فخامة وغيرها. انظر حول هذا الاستخدام

Li Qingesheng, Translated by Li Danhe, Ma Yonghong, Li Changyin, and Li Yue, A Biography of Sayyid Ajall Omer Shams Al-Din, Yunnan University Press, 1998, p.2.

(١) Li Qingesheng , Translated by Li Danhe, Ma Yonghong ,Li Changyin, and Li Yue , A Biography of Sayyid Ajall op.cit.,p.2.

على بخارى وأنَّ وفداً منهم قد جاء إلى الصين في سنة ٤٦٣ هجرية (١٠٧٠م) لتقديم "الولاء" مع أعيان من قبائل بخارى.[١] *

إلا أنَّ المصادر الصينية تبدو شديدة الاضطراب حول تاريخ وصول السيد الأجل شمس الدين إلى الصين، فبينما يشير سجل الأنساب الخاص بهذه الأسرة (Geneological record) إلى أنَّ أجداده قد انتقلوا من بخارى إلى الصين في وقت ما خلال أسرة سُونغ الشمالية بسبب الاضطرابات هناك.[٢]، يشير كتاب تاريخ أسرة يُوان إلى أن شمس الدين قد جاء إلى الصين مع الجحافل المغولية التي وسعت الفتوحات المغولية إلى غرب آسيا ويضيف "أن الإمبراطورTai Zong أو قوداى ٦٢٧- ٦٣٩ هجرية (١٢٢٩- ١٢٤١م) قد عينه في سنة ٦٢٧ هجرية (١٢٢٩م) رئيساً تنفيذياً (والياً) على ثلاث ولايات مهمة". وتغطي الولايات الثلاث مساحة من شمال غرب دَاتُونغ (Datong) في محافظة شَانْسِي إلى منغوليا الداخلية حتى غرب جِيْنِينغ (Jining) وتضم ولاية فَنْغ (Feng) شرق مدينة هُوهَوهُوت (Huhehot) وولاية جينغ (Jing) شمال مدينة هُوهَوهُوت (Huhehot)، وولاية يُون ني (Yunnei) غرب مدينة هُوهَوهُوت (Huhehot). وتعتبر المناطق التي تقع تحت حكم شمس الدين مراكز تجارية

---

(١) Jianping Wang, Concord and Conflict, op.cit, p. 47

* درج مؤرخو البلاط الصيني على توثيق كل الوفود القادمة من خارج الصين لتعزيز الصلات بين ممالكهم والصين في حولياتهم التاريخية، لكنهم يشيرون في هذه الحوليات إلى أنَّ هذه الوفود جاءت لتقديم فروض الطاعة والولاء لإمبراطور الصين(Tribute) حيث كان الصينيون يعتقدون أنهم المركز المتحضر الوحيد في العالم.

(٢) Li Qingesheng, Translated by Li Danhe, Ma Yonghong, Li Changyin, and Li Yue, A Biography of Sayyid Ajall Ajall, p.2.

مهمة ذات كثافة سكانية عالية.[1] وقد شكل هذا المنصب المهم بداية تاريخه السياسي والإداري. وتشير المصادر الصينية إلى أنَّ شمس الدين قد وصل إلى المنطقة وهي لا تزال تعاني من آثار المعارك بين جيوش المغول وأسرة جِين (Jin) التي انتهت في سنة ٦١١ هجرية (١٢١٤م).

وتصف المصادر التاريخية الصينية حالة الفقر وعدم الاستقرار الشديدين في المنطقة عند وصول شمس الدين إليها وبعد سنوات قليلة تحولت هذه المناطق إلى مناطق مزدهرة ومُنتِجَة حيث قام شمس الدين بإصلاح اقتصادي ريفي شامل أثمر هذا الإصلاح ازدهاراً في المنطقة ورفاهية لسكانها وتمتع السكان المحليون بحياة مزدهرة وسعيدة.[2]

وتكررت قصص نجاحاته في كل من منطقة يانجينغ (Yanjing) بكين الحالية وخُنَان(Henan) وتَشندِينغ (Zhending) وسِيتَشوان (Sichuan) وشانسي (Shaanxi)، حيث قام بإصلاح زراعي وفي مجال الضرائب عامة وخلال عشرين عاماً من عمله في يانجينغ (Yanjing) منذ سنة ٦٦٣ هجرية (١٢٦٤م) شهدت المنطقة ازدهاراً واستقراراً واضحاً. وكسب ثقة الناس في المناطق التي أدارها. حيث كان يقوم بخفض الضرائب وتوزيع المؤن على الناس في زمن الكوارث الطبيعية بل ويقوم أحياناً بإلغاء الضرائب.[3] وتشير الوثائق الصينية إلى أنَّ شمس الدين كثيراً ما قام أثناء عمله وإدارته في مقاطعات ومناطق شَانْسِي وسِيتْشوَان بتوزيع الأراضي

(١) Ibid. pp. 2- 3.

(٢)يحيى لين سونغ ، السيد أجل شمس الدين مساهمة عظيمة لمسلم في بناء مناطق الصين الحدودية ، سلسلة ثقافية (١) ، منشورات مجلة بناء الصين، دار النشر باللغات الأجنبية، بكين ، ١٩٨٢، ص ص ١١٥- ١٢١.

(٣)نفس المصدر، ص ١١٨.

وقطعان الماشية والحبوب على مَنْ لا يملكون أراضي وقطعاناً للانتظام في عمليات الإنتاج وتنشيط الدورة الاقتصادية في هذه المناطق مما ينعكس بالطبع استقراراً اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً.(١)

إلا أنَّ أهم إنجازاته على الإطلاق فقد كانت في منطقة يُونان الحدودية وذلك عندما عينه قوبلاي خان حاكماً على هذه المنطقة الفقيرة في سنة ٦٧٣ هجرية ١٢٧٤م التي سادتها الاضطرابات بسبب ثورة الأقليات القومية التي قادها شِيلِي وي (Sheli Wei) في سنة ٦٦٣ هجرية (١٢٦٤م) ومقتل أمير يونان هُوق إشيHug Echi الابن الخامس لقوبلاي خان في سنة ٦٧٠ هجرية (١٢٧١م) بسبب صراع على السلطة وسوء إدارته للمنطقة.(٢) وبالإضافة إلى اضطراب الأمن في يُونان وجد شمس الدين الذي بلغ عمره آنذاك ٦٣عاماً المنطقة تعيش فقراً مُدقِعاً ونظاماً زراعياً متخلفاً وضعيفاً، حيث لم تكن المنطقة تعرف على سبيل المثال حتى وصوله محاصيل كالأرز ولم تكن هناك أية مرافق للري وفوق كل هذا كان السكان يرزحون تحت نير نظام ضرائب قاس لم يراع واضعوه حالة الفقر العامة في الإقليم.(٣) وقد بدأ السيد الأجل شمس الدين إصلاحه الشامل بتنظيم الهيكل الإداري للمنطقة ونزع السلطات من كبار القادة الإقطاعيين وجنرالات الجيش، وفصل السلطة العسكرية عن المدنية. وبحلول سنة ٦٧٥ هجرية (١٢٧٦م)

---

(١) Volume.125 (In Chinese) Yuan Shi (History of Yuan Dynasty)

(٢) Qingesheng , Translated by Li Danhe, Ma Yonghong ,Li Changyin, and Li Yue , A Biography of Sayyid Ajall, , op.cit p. 22.

(٣) Bai Shouy , Shams, The Annals of Hui figures , Volume 2.

انظر أيضاً يحيى لين سونغ ، السيد أجل شمس الدين مساهمة عظيمة لمسلم في بناء مناطق الصين الحدودية ، مصدر سبق ذكره ، ص ص ١١٦ – ١١٨ ، انظر أيضاً

Che'n Yuan, Translated and annotated by Ch'ien Hsing – hai and L. Carrington Goodrich, Western and Central Asians in China, op.cit.,p.58

كان النظام الإداري القديم قد تم إلغاؤه أو إصلاحه إصلاحاً جذرياً.[١] وقد مهد الإصلاح الإداري لإصلاح زراعي ريفي شامل بدأ بتصميم نظام ري متكامل قام على تعميق بحيرة هَايكُو(HaiKou) والاستخدام الأمثل لنهر بَانلُونْغ (Panlong) وتصميم شبكة ري مرتبطة ببحيرة هَايكُو(Haikou) و نهر بَانلُونْغ(Panlong) وذلك لمنع الفيضانات وبناء منشآت ري وتخزين على طول ست بحيرات. وأنشأ شمس الدين من بحيرة هَايكُو (HaiKou) وحتى پينغْدِيشَاو (Pingdishao) على طول عشرة كيلومترات أكثر من ٧٠ سداً على طول النهر وكانت المياه تنقل بشكل منظم من السدود إلى الحقول.

كما شق قنوات ري مثل قناة جِن تِشي (Jin Zhi) التي حركت ساكن الحياة على طول قرى القوميات التي مرت بها القناة. ولا يزال نظام الري الذي أقامه شمس الدين يعمل في بعض أجزائه حتى اليوم. وكان جوزيف نيد هام صاحب العمل الكبير العلوم والحضارة في الصين، قد أذهلته أنظمة الري التي أنشأها شمس الدين في حوض كُونمينغ أثناء زيارته لهذه المنطقة في نهاية سنة ١٣٦١ هجرية (١٩٤٢م).[٢]

وبتنظيم قنوات الري قام شمس باستصلاح أراض واسعة جديدة وأدخل محاصيل لم تكن معروفه من قبل في الإقليم. وتم إصلاح نظام الضرائب مما خفّف كثيراً عن كاهل المزارعين وتطبيق سياسات لصالح فقراء المزارعين.[٣] ونتيجة

---

(١) Li Qingesheng, Translated by Li Danhe, Ma Yonghong, Changyin, and Li Yue, A Biography of Sayyid Ajall, op.cit. p.26

(٢) Ibid., pp 31- 39 , see also needham, Joseph , Science and Civilization In China , Volume 4 , Cambridge, at the University press , 1971, p 297 .

(٣) إعداد محمود يوسف – لي هوا ين وآخرين، تعريب محمود يوسف لي هوا ين وآخرين، الشخصيات الإسلامية البارزة في الصين، دار النشر باللغات الأجنبية، بكين، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، مصدر سبق ذكره، ص ٤- ٨.

لعلاقات الإنتاج الجديدة التي أفرزتها سياسات شمس الدين المنحازة لفقراء الناس في الإقليم ارتفعت معدلات الإنتاج وانتقلت قوميات كاملة من دائرة الفقر إلى حياة أفضل وأصبحت مدينة كُونمينغ ولأول مرة عاصمة ثقافية واقتصادية وتجارية لإقليم يونان الذي أصبح محافظة مستقرة ومزدهرة وجزءاً أصيلاً من الصين. ولم ينس شمس الدين القطاعات التي أقعدت بها ظروفها الخاصة عن عملية البناء والتمتع بثمار الازدهار في تلك الفترة. حيث خصَّص شمس الدين دوراً للمحتاجين واليتامى والأرامل وُفر لها طيب الطعام والملبس.[(١)] إلا أنَّ أبرز ما استرعى اهتمامي الشخصي في حياة هذا المسلم العظيم هو سياساته الدينية وعلاقاته مع القوميات والأقليات في منطقة هي في الأصل تضم تشكيلة متباينة من الأقليات والديانات والثقافات المختلفة، فشمس الدين التقي النقي الذي بنى مسجدين كبيرين هما مسجدا نَان شَنْغ (Nan Cheng) ويُونغ نِينْغ (Yong Ning) بنى أيضاً معابد ومدارس لأتباع المعلم الفيلسوف كنفوشيوس، بل هو أول من بنى في سنة ٦٧٣- ٦٧٥ هجرية (١٢٧٤ – ١٢٧٦م) أول معبد كنفوشيوسى في تاريخ يُونان وقد أُلحقت به مدرسة لدراسة التعاليم الكنفوشوسية وعلوم أخرى كالطب والفلك وغيرها وكانت هذه المدرسة هي أول مدرسة في الإقليم تقبل التلاميذ من جميع القوميات والخلفيات الأسرية.[(٢)] ونلاحظ أنَّ شمس الدين قد استفاد من نظام الأوقاف الخاص بالمساجد حيث اقترح شراء

(١) Li Qingesheng, Translated by Li Danhe, Ma Yonghong, Changyin, and Li Yue, A Biography of Sayyid Ajall, op.Cit p.106.

(٢) Che'n Yuan, Translated and annotated by Ch'ien Hsing – hai and L. Carrington Goodrich, Western and Central Asians in China, op.cit, p 58

بعض الأراضي لصالح المعبد ـ المدرسة وتأجيرها ليعود عائدها للصرف على المدرسة والمدرسين.[1]

وتشير المصادر الصينية بما فيها مصادر تاريخ القوميات في محافظة يونان إلى العلاقة الرائعة التي قامت بين أبناء هذه القوميات وشمس الدين حيث أظهر هذا المربي المسلم العظيم تفهماً واحتراماً منقطع النظير لثقافات هذه الأقليات ونمط حياتها ودياناتها وموروثها الثقافي، حيث حرص شمس الدين على إظهار احترامه الكامل لتقاليد هذه القوميات، ولم يكترث شمس الدين بالنظام العنصري الاجتماعي الذي فرضه المغول على المجتمعات التي حكموها في الصين والتي أشرنا إليها سابقاً فقام بتعيين الإداريين الأكفاء من مختلف القوميات بغض النظر عن ترتيبهم في النظام الاجتماعي المغولي ودينهم حيث اختار مسؤولين لمواقع إدارية رئيسية من قوميات الهان، والتانغو، والباي واليى وغيرهم.[2] وتحت قيادته عاشت القوميات الصينية المختلفة في سلام حقيقي واستطاع في سنوات حكمه الست أن يضم مملكة دَالِي (Dali) ومملكة نَان تَشاو(Nan Zhao) بشكل نهائي للسلطة المركزية لتصبح هاتان المنطقتان جزءاً أصيلاً من الصين.[3] ونلاحظ أنَّ بعض الباحثين الصينيين قد فسروا اهتمام شمس الدين ورعايته للمعابد والتعاليم الكنفوشوسية ومعتنقيها بأنه اختار لحكم الإقليم برنامجاً كنفوشوسياً، ويتساءل هؤلاء الباحثون عن لماذا اختار شمس الدين عمر برنامجاً كنفوشوسياً بدلاً عن

---

(١) -Li Qingesheng , Translated by Li Danhe, Ma Yonghong , Changyin, and Li Yue , A Biography of Sayyid56 Ajall , op.cit p - 56

(٢) Ibid., p.64.

(٣) Ibid., p.59

برنامج إسلامي في يُونان وهو الحاكم الشديد الإيمان بدينه القوي والمدعوم من المركز في بكين والمحبوب من شعبه في يُونان، ولا يجد بعض الباحثين جواباً لسؤالهم الحائر سوى أنَّ شمس الدين كان قد تصين بحكم إقامته الطويلة في الصين في ذلك الوقت، بينما يحاول الباحث الصيني وَانْغ جيانغ بينْغ الإجابة على هذا السؤال بقوله " إن المناطق الحدودية في يونان لها تاريخ تلاقح ثقافي قديم مع الثقافة الصينية قبل أسرة يوان وأنَّ سكانها قد تأثروا بالتقاليد الكنفوشوسية وأن القيادات الإسلامية هناك بما فيهم شمس الدين عمر قد استفادوا من هذا الاتجاه لتعزيز التنمية والاستقرار الاجتماعي في هذا الإقليم".(١) ومع تقديري لهذه الاجتهادات إلا أنني أعتقد أنَّ شمس الدين عمر لم يطبق في يُونان برنامجاً كنفوشوسياً علماً بأنَّ مسلمي الصين ظلوا تاريخياً قريبين جداً من التعاليم الكنفوشوسية لتشابه الكثير من تعاليمها مع تعاليم الإسلام، بل في الواقع أنَّ شمس الدين قد طبق برنامجاً إسلامياً صحيحاً قائماً على فهم عميق لتعاليم الإسلام وتراثه العظيم المبني على احترام الآخر والحوار معه بالحُسنى وبسط قيمة العدل ومنح الناس حقوقهم الثقافية والاقتصادية. وقد نجح في تقديري برنامج شمس الدين الإسلامي المتسامح في يُونان والدليل على ذلك هو الوجود الإسلامى الكثيف في يونان اليوم. إن الحزن النبيل الذي خيَّم علي القبائل والقوميات في يُونان والأساطير والحكايات والأغاني التي ألفتها وكتبتها مختلف القوميات في يُونان والتي اتفقت كلها طوال سبعمائة عام بمختلف دياناتها وثقافاتها على عظمة هذا الأمير المسلم العظيم وعدله وتواضعه تدل حقاً على عمق العلاقة التي أسسها هذا الحاكم مع محكوميه الذين

(١) Jianping Wang, Concord and Conflict, op.cit, p.72.

خرج جزء مقدر منهم مختارين من معابدهم التي بناها لهم ليدرسوا تاريخهم وتراثهم ودخلوا أفواجاً لرحاب الإسلام الرحيب لا خوفاً بل اقتداءً بحاكمهم وبعدله. وهي تعرف أو لا تعرف أنَّ شمس الدين قد استمد عدله وثقافته الواسعة واحترامه للآخر من عدل الإسلام النقي حين يتسلل بإنسانيته وفطرته السمحة في دواخل المسلمين فلا يرون في الذين يختلفون عنهم في معاشهم ودينهم وثقافتهم وألوانهم سوى إخوة إن كانوا بينهم، ومواطنين كاملي الحقوق يُسألون عنهم يوم الحشر العظيم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [سورة الحجرات – الآية ١٣]، وقد استمر أبناء شمس الدين الذين واصلوا حكم هذا الإقليم في تنفيذ سياسات وبرامج والدهم وحظوا بذات الاحترام.

المهندس يحيى طاهر:

وبعيداً عن يُونان وفى قلب عاصمة الصين الحالية كان هنالك مهندس مسلم آخر يدفع بإسهامات أخرى ولكن في قطاع الهندسة والتشييد وهو المهندس يحيى طاهر حسب قراءتي، واختيار الدين حسب قراءة الباحثين الصينيين * الذي

* في تقديري أن قراءتي الصوتية لاسم هذا المهندس العربي المسلم (يحي طاهر قد تكون الأصوب، وأرى أن الباحثين الصينيين ربما قد وقعوا في خطأ صوتي عند تعريبهم لاسم هذا المهندس المسلم وقد لاحظت أن الباحث الصيني Feng China – Sheng قد ترجم في مقال له في مجلة بناء الصين عدد أبريل ١٩٥٥م اسم هذا المهندس (اختيار الدين). وقد استمر الباحثون الصينيون أمثال لوان تشنغ شيان وصديقي محمود ين يوان وغيرهم من الباحثين والمترجمين في استخدام هذه الترجمة الصوتية إلا اننى أميل وحسب ما كتب اسم هذا المهندس في النصب الحجري في ذكرى ابنه محمد شاه والذي كتب باللغة الصينية وترجمتها الصوتية بالمقاطع الإنجليزية كالتالي Yeh –hei –tieh –erh حسب ترجمة Ch'en Yuan

وبالرغم من إنجازه الحضاري والتاريخي المميز وهو تصميمه وبناؤه لمدينة دَادو (بكين) عندما اختارها المغول لتكون عاصمة ذات مهابة تعكس سطوة وقوة الدولة الجديدة ومركزاً لحكم الصين، فإنَّ كتاب تاريخ أسرة إيوان لم يحفظ سيرة ذاتية له، إلا أنَّ مصادر صينية أخرى ونصباً حجرياً في ذكرى محمد شاه أحد أبناء يحي طاهر حفظ لنا سيرة هذا المهندس العظيم حيث يشير النصب الحجري إلى أنَّ أسلافه في أسرة تانغ كانوا عرباً، وعندما وصل قوبلاي خان (Shi Zu) للحكم عين يحيى مديراً لقسم الأشغال العامة (Cha-Tieh -Erh) وأصدر قوبلاي في ٢٨ ديسمبر ١٢٦٦م - ٢٦ يناير ١٢٦٧م مرسوماً إمبراطورياً لبناء قصور المدينة وأسوارها.[١] وبالفعل عكف المهندس يحيى طاهر على تصميم مشروع مدينة كبيرة ومهيبة لم يهتم فقط فيها بمهابة القصور الملكية وزخرفتها وصالاتها الفخمة وأديرتها ومعابدها بل بأسوار المدينة وبواباتها والطرق الداخلية في المدينة والمناطق السكنية داخلها ومباني المحاكم والمكاتب الإدارية داخل القصور وحولها وحتى

وحسب قراءتي الصوتية للنص الصيني فإنَّ الترجمة الصوتية العربية الأقرب لهذا المقطع الاسم هو يحيى طاهر. والاسم يحيى طاهر ليس الأقرب فقط صوتياً للمقطع الصيني بل أيضاً يتسق مع توثيق المصادر الصينية لجذور الرجل الذي لا يختلف المؤرخون الصينون على جذوره العربية بينما اسم اختيار وباختيار هما من أسماء المسلمين في إيران وآسيا الوسطي ونادراً ما يستخدم العرب هذا الاسم وبذلك يكون اسم يحيى طاهر متسقاً مع منظومة الأسماء العربية والأقرب صوتياً للترجمة الصوتية على النصب الحجري الذي كتبه أفراد من أسرة يحيى طاهر في ذكرى ابنه محمد شاه وهم الأدرى أيضاً في تقديري بكتابة الاسم الصحيح لوالدهم وجدهم من غيرهم من الموثقين). انظر:

Ch'en Yuan, Western And Central Asian's In China under The Mongols p 218, See also pp. 219-249.

(١)Che'n Yuan, Translated and annotated by Ch'ien Hsing – hai and L. Carrington Goodrich, Western and Central Asians in China, op.cit, pp .217-220.

المخازن وغرف الخدم. وفى ٢٨ ديسمبر ١٢٦٦ – ٢٦ يناير١٢٦٧م أمر الإمبراطور بعد إجازة المشروع يحيى ومساعديه ببدء تنفيذ التصميم وبناء قصور المدينة وأسوارها.(١) ويحفظ لنا مصدران صينيان هما The Chi Keng Lu و The ts'ung-shu Chich –Pu –tsu – chai وصفاً جيداً لنظام قصور محكم التنظيم ورائع كما وصفت المصادر الصينية التاريخية والمعاصرة بشكل دقيق شكل المدينة التي صممها وأشرف على بنائها ذلك المهندس يقول لُوان تِشنغ شِيان من معهد التاريخ التابع لأكاديمية العلوم الاجتماعية :

" ظهرت المدينة مربعة الشكل طول السور حول المدينة ٢٨.٦ كيلو متر تتخلله إحدى عشرة بوابة وكان فيها ١٨ شارعاً ويتوسطها القصر الإمبراطوري مقابلاً للجنوب تليه المنطقة التجارية وقُسمت المدينة إلى ٥٥ حياً تفصل بينها الطرق وكان معدل عرض الطريق ٢٥ متراً وأوسعها ٢٨ متراً. وكان من أبرز ما امتازت به تصاميم البناء هو الخط المحوري مخترقاً المدينة ومنطلقاً من بوابة لِيت شَنْغ في موقع ميدان تِيان آن مِين حالياً الواقع في أقصى جنوب المدينة إلى شمال القصر الإمبراطوري منتهياً عند جوسق الجرس – مركز الإنذار – وجوسق الطبل – مركز التوقيت – ورفع قصر دا مينغ في القصر الإمبراطوري والذي يرمز إلى سلطة الإمبراطور وسط الخط المحوري واصطفت القصور الأخرى فيه على جانبيه ويتوسط القصر الإمبراطوري جزيرة تِشيونغهوا (حديقة بيهاى حالياً) ورتب هذا التصميم الإبداعي بذلك منشأة القصر المهيب فيما بين المناظر الطبيعية الجميلة. بالإضافة إلى بناء القصر الإمبراطوري المهيب (قصر Guang- han- gong)

(١) Ibid.,

نهض يحيى مع مساعديه بمسؤولية تشييد السور المحيط بالقصر وإنشاء حديقة حيوان خاصة بالإمبراطور وحاشيته ".[١]

هذا كما عكس لنا أيضاً رشيد الدين مهابة المدينة مشيراً إلى أنَّ " لسور المدينة سبعة عشر برجاً وفى وسط المدينة بُنى قصر الإمبراطور المهيب وقد بُنيت أعمدته وبلاطه من المرمر الجميل، أما حديقة القصر فقد جُلب لها كل أنواع الأشجار من جميع أنحاء العالم لتُزرع في الحدائق ".[٢] *

---

(١)Ibid.,

انظر أيضاً مدينة بكين والمعمار المسلم العظيم – اختيار الدين ، سلسلة ثقافية (١) ، منشورات مجلة بناء الصين، دار النشر باللغات الأجنبية، بكين ، ١٩٨٢ ، ص ص ١٣٩- ١٤٢.

(٢) Boyle, John Andrew, The Successors of Genghis Khan, op.cit., pp 274-275.

* أعتقد أنَّ ابن بطوطة الذي وصل إلى الصين في عام ١٣٤٧م أي بعد حوالي ٦٢ عاماً من إكمال يحيى طاهر لبنائه لمدينة دادو وقصورها، حمل لنا وصفاً جيدا أيضا لقصر الإمبراطور عند زيارته لخان بالق ونعتقد أنه هو ذات القصر الذي صممه وأشرف على بنائه يحيى طاهر فهو يقول: " وقصره في وسط المدينة المختصة بسكناه وأكثر عمارته بالخشب المنقوش، وله ترتيب عجيب. وله سبعة أبواب: فالباب الأول منها يجلس به الكتوال، وهو أمير البوابين. وله مصاطب مرتفعه عن يمين الباب ويساره، فيها المماليك حفّاظ باب القصر، وعددهم خمسمائة رجل. وأُخبرت أنهم كانوا فيما تقدم ألف رجل. والباب الثاني يجلس عليه الرماة وعددهم خمسمائة. والباب الثالث يجلس عليه أصحاب الرماح وعددهم خمسمائة. والباب الرابع يجلس عليه أصحاب السيوف والترسه. والباب الخامس فيه ديوان الوزارة وبه سقائف كثيرة: فالسقيفة العظمى يقعد بها الوزير على مرتبة هائلة مرتفعة، وبين يديه دواة عظيمة من الذهب. وتقابل هذه السقيفة سقيفة كاتب السر. وعن يمينها سقيفة كاتب الرسائل. وعن يمين سقيفة الوزير سقيفة كتّاب الأشغال وتقابل هذه السقائف سقائف أربع: إحداها تسمى ديوان الإشراف، يقعد بها المشرف. والثانية سقيفة ديوان المستخرج. وأميرها من كبار الأمراء. والمستخرج هو ما يبقى قبل العمال وقبل الأمراء من اقطاعاتهم. والثالثة ديوان الغوث، ويجلس فيها أحد الأمراء الكبار ومعه الفقهاء والكتّاب، فمن لحقه مظلمة استغاث بهم. والرابعة ديوان البريد يجلس فيها أمير الإخباريين والباب السادس من أبواب القصر يجلس عليه الجندارية وأميرهم

وكان يحيى طاهر قد اقترح في سنة ٦٦٢ هجرية (١٢٦٣م) وقبل أن يبدأ في بناء قصور المدينة وأسوارها بناء جزيرة شيونْغ هُوا دَاو(Qiong – Hua- Dao) وهي جزيرة بي هَاي (Pei – Hai) وقد رفض طلبه في البداية إلا أنَّ الجزيرة قد بنيت بعد عام واحد من اقتراحه ولا تزال هذه الجزيرة موجودة حتى الآن في بحيرة بي هَاي (Pei – Hai).[١] وكانت هذه الجزيرة وبحيرة بي هَاي (Pei – Hai) والحدائق التي اقترحها يحيى طاهر وربطها بمجموعة القصور والأبنية الإمبراطورية قد عكست وعيه البيئي وحسه الجمالي، كما أنَّ تصميم المدينة وبناءها بأسلوب المعمار الصيني الخالص يعكس وعياً بالزمان والمكان وتقديراً عميقاً للثقافة والحضارة الصينية، وإدراكاً سياسياً نافذاً بألا يكون الحاكم بآلياته وثقافاته ومعماره بعيداً عن بنية المحكوم الثقافية والتراثية.إلا أنَّ يحيى بن طاهر الذي قدره الإمبراطور تقديراً عالياً بعد إنجازه لمشروعه الضخم.[٢] لم يقدر له أن يبقى طويلاً ليتجول في مدينته الجديدة إذ هده التعب والإرهاق ومات بعد وقت قصير من إكمال مشروعه العملاق وقد ورث أبناؤه مثل محمد شاه ومبارك وعمر وغيرهم من بعده منصب وزير البناء لعدة أجيال واستمروا من خلاله يسهمون في صيانة وتعمير المدينة التي صممها والدهم.[٣]

الأعظم. والباب السابع يجلس عليه الفتيان، ولهم ثلاث سقائف: إحداها سقيفة الحبشان منهم أمير من الصينيين". (مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار، مصدر سبق ذكره ص ص ٢٦٣- ٢٦٤).

(١)Che'n Yuan, Translated and annotated by Ch'ien Hsing – hai and L. Carrington Goodrich, Western and Central Asian s in China, op.cit, p. 224.

(٢) مدينة بكين والمعمار المسلم العظيم – اختيار الدين ، سلسلة ثقافية (١) ، منشورات مجلة بناء الصين، دار النشر باللغات الأجنبية، بكين ، ١٩٨٢، ص ١٤٣.

(٣) جعفر كرار أحمد، تاريخ العلاقات الصينية العربية، رسالة دكتوراه جامعة نانجين، انظر(الملاحق) قائمة بعنوان المسؤولون العرب إبّان الحقبة المغولية، انظر قائمة بأسماء أبناء وأحفاد المعماري يحيى طاهر، مصدر سبق ذكره.

إنَّ العاصمة التي شيدها يحيى في سنة ٦٨٤ هجرية (١٢٨٥م) كانت بحجم مدينة بكين في بداية قيام جمهورية الصين الشعبية في سنة ١٣٦٩ هجرية (١٩٤٩م) وهى البنية الأصلية التي قامت عليها مدينة بكين الحالية حيث لا يزال تخطيط الشوارع العريضة والأزقة وكثير من التقسيمات قائمة في المدينة. مثل شارع دُونغْدَان.. شارع شِيدَان.. شارع دُونغْسِي.. شارع شِيسى.. طريق دُونغتِشيمِنْ.. طريق شِيتِشيمِنْ.. طريق قُولو الغربية.. طريق تَشاويَانغْمِن الداخلية، وقد وجدت كل هذه الشوارع في دَادو تحت أسماء مختلفة. (١) * فهل خطر لأجيال الصين الجديدة وضيوفها من الأجانب وهم يتجولون بين أنقاض سور مدينة بكين القديم وشوارعها العريضة الجميلة وحديقة بحيرة بِي هَاي (Pei –Hai) الخلابة أنَّ مَنْ

(١)بكين حاضرة الصين العريقة والحديثة، إعداد: ليو جيون ون، ترجمة محمد أبوجراد، دار النشر باللغات الأجنبية، الطبعة الأولى ١٩٨٨، بكين. ص ٧ .

* يقول كتاب رسمي باسم بكين حاضرة الصين العريقة والحديثة " إنَّ بناء دادو قد فتح فصلاً جديداً في تاريخ بكين. فمنذ أن أصدر الإمبراطور قوبلاي خان مرسومه لبناء عاصمته الجديدة دادو، وحتى تأسيس جمهورية الصين الشعبية وبكين عاصمتها، كان مركز المدينة في المنطقة التي حول قوانغآنمن اليوم، ومنذ بناء دادو وإلى اليوم، بقى المركز على هذا الوضع، مع انقطاع قليل، تحت أسماء مختلفة من مختلف الأسر الملكية إلى الوقت الحاضر. وجرى بناء دادو (بكين الحالية) وفق خطة شاملة، ففي الوسط وإلى الجنوب كانت المدينة الإمبراطورية التي تألفت من ثلاث مجموعات من القصور على ضفاف تشونغهاى (البحيرة الوسطي) وبيهاى. وكانت القصور على الضفة الشرقية حيث كان إمبراطور يوان يجرى المقابلات وكان أيضاً محل إقامته يعرف باسم داني (المدخل العظيم).. سلف (المدينة المحرمة) لأسرتي مينغ وتشينغ. وكانت القصور الجنوبية والشمالية على الضفاف الغربية للبحيرتين محل إقامة لولي العهد والإمبراطورة الأم. وقد زينت سقوف القصر بقرميد مزجج زاهي الألوان، وكانت المصاطب من رخام أبيض منحوتة على نحو معقد. وكان فن الزخرفة الداخلية بهيجا. وفى قلب المدينة، شمال القصر، برج الطبل وخلفه برج الجرس حيث كانت تقرع الطبول وتدق الأجراس لبيان ساعات النهار والليل. وكان للسور المحيط بالمدينة بوابتان من ناحية الشمال وثلاث بوابات على كل من جوانبه الأخرى. وكانت الشوارع العريضة والمستقيمة تربط بين كل بوابتين متقابلتين". انظر بكين حاضرة الصين العريقة والحديثة، إعداد: ليو جيون ون، ترجمة محمد أبوجراد، دار النشر باللغات الأجنبية، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، بكين. ص ٦- ٧ .

صمَّم لهم أسوارهم وقصورهم وشوارعهم الواسعة وحديقتهم الجميلة في زمن قديم وصديق هو مهندس عربي مسلم يدعى يحيى بن طاهر ؟

وهكذا نرى أن المسلمين في الصين خلال أسرة يوان قد قدموا إسهامات مهمة في فروع المعرفة المختلفة، وساهموا في تعزيز البناء السياسي والفكري للأسر المغولية الحاكمة في الصين، وفي التقدم الاقتصادي والثقافي للصين، إلا أنه وبالرغم من هذه الإنجازات المهمة إلا أنَّ علاقات المسلمين بحكامهم المغول لم تكن دائماً على ما يرام وذلك نتيجة للمؤامرات والدسائس التي كان يقصد منها الوقيعة بين الجانبين، كما أنَّ المسلمين لم يتفقوا دائماً مع بعض ممارسات وسياسات السلطات المغولية، كما أن أحداث هذه الحقبة كانت تشير أيضاً إلى أنَّ العلاقة في بعض مراحلها اتسمت بالاضطراب والشك، فالمغول الذين يبدو أنهم كانوا في حاجة لمهارات المسلمين في الميادين التي ذكرنا، أرادوا أيضاً الاستفادة من خبرات المسلمين بالصين الذين كانوا أخبر من غيرهم بأحوال الصين ولغاتها لأن بعض الأجيال من العرب والفرس كانوا سلفاً قد تواجدوا في الصين وأصبحوا من مواطنيها.

ولم يكن المغول يثقون كثيراً في إدارييهم المسلمين، إذ تحفظ المصادر الإسلامية والصينية والغربية الكثير من المؤشرات والأحداث حول مظاهر هذه العلاقة المضطربة إذ ترصد المصادر حركة إعدامات ضد قادة مسلمين لأسباب مختلفة. حيث تمَّ على سبيل المثال في سنة ٧٠٩ هجرية (١٣٠٩م) الحكم بالإعدام على مسؤول مسلم يدعى أبو سلامة كان من كبار الموظفين في مدينة دادو(Dadu) ومحبوباً من الشعب ومبجلاً من الجنود.[١] كما كان من النادر أن تعهد لهم قيادات عليا في الجيش إلا عند الضرورة القصوى، كما كان المغول يحرصون على أن يبقوا

---

(١) جامع التواريخ، رشيد الدين فضل الله الهمذاني، تاريخ المغول، المجلد الثاني – الجزء الأول، الإيلخانيون ، تاريخ هولاكو مع مقدمة رشيد الدين، مصدر سبق ذكره ص ١٢٤.

عدداً محدوداً جداً من الجياد في حوزة المسلمين وقد ارتبطت الجياد عند المغول بحركات التمرد والقتال.[1] بل هُدمت مساجدهم في بعض الأحيان حيث أمر الإمبراطور إنغ تَشنغ في سنة ٧٢١ هجرية (١٣٢١م) بهدم مسجد المسلمين في العاصمة شَانْغ دُو(Shang Du).[2]

وكانت كثيراً ما تتوتر علاقات البلاط المغولي مع المسلمين لأسباب مختلفة بعضها بسبب الشكوك المُترسخَة لدى البلاط المغولي وبعضها بسبب الصراعات على السلطة والتنافس على المناصب في بلاط متنوع الأعراق، وكذلك بسبب النزاع بين الجماعات الدينية المختلفة وأحياناً أيضاً بسبب سوء الإدارة واستغلال النفوذ عند بعض قيادات المسلمين العليا مثل الفساد الذي مارسه كبير وزراء قوبلاي – أحمد الفنكاتي حيث استغل ماركوبولو كما ذكر هادي العلوي، فساد هذا الطاغية وقتله على يد مواطنيه ليشرح لقوبلاي خان ما كان يفعله أحمد بالصينيين وكان قوبلاي خان ميّالاً للعدل والإنصاف على عكس أصحابه الذين فتحوا بغداد على حد تعبير المؤرخ هادي العلوي فأمر بإخراجه من قبره ورميت جثته للكلاب وقتل أولاده وأولاد أخيه.[3] ، إلا أن رشيد الدين الذي خصَّص جزءاً من تاريخه لهذا الحدث أشار إلى خلافات شديدة بين أحمد وأحد كبار وزراء البلاط اسمه قُو (Gou) الذي دبر عدة محاولات لقتله وحقق ذلك في المرة الأخيرة وقتل أيضا قُو (Gou) أثناء – هذه المحاولة بسهم أطلقه أحد مساعدي أحمد، وأشار إلى أنَّ الخان قد غضب وأمر بإعدام كل الذين شاركوا في عملية الاغتيال وأقام جنازة مهيبة لوزيره الراحل. لكن الإمبراطور الذي اكتشف أنَّ وزيره الكبير

---

(١)Rossabi, Morris, the Muslims in the Early Yuan Dynasty, op.cit., p. 277.

(٢)جامع التواريخ ، رشيد الدين فضل الله الهمذاني ، تاريخ المغول ، المجلد الثاني – الجزء الأول ، الإيلخانيون ، تاريخ هولاكو مع مقدمة رشيد الدين ، مصدر سبق ذكره ص ١٢٤.

(٣)هادي العلوي ، المستطرف الصيني ، من تراث الصين ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٠٠.

كان يحتفظ بالهدايا التي تقدم للإمبراطور لنفسه و بعد أربعين يوماً من وفاته قام بإخراج جثته وعلقها في السوق وأمر بقتل زوجته انجو خاتون (تسميها المصادر الصينية Yin Chu) وضم ثروته للخزانة العامة.[١] ويشير رشيد الدين في تاريخه إلى أزمة أخرى نشبت بين البلاط وبين المسلمين إبَّان تولي سِينغ (Seng) منصب كبير الوزراء حيث أشار إلى أنَّ بعض التجار المسلمين الذين كانوا في حضرة الإمبراطور رفضوا أن يتناولوا طعاماً قدمه لهم الإمبراطور بنفسه بسبب أنه غير مذبوح على الطريقة الإسلامية.[٢] فغضب الإمبراطور وأصدر مرسوماً منع فيه الذبح على الطريقة الإسلامية كما منع ختان الذكور وأنزل عقاباً صارماً على المخالفين. وبقى أطفال المسلمين لأربع سنوات متوالية دون ختان.[٣] وفى وسط هذا التوتر يقول رشيد الدين إنَّ بعض المسيحيين في بلاط الهَان قد انتهزوا هذه الأجواء ليحذروا الإمبراطور من وجود آية في القرآن تقول ﴿ **فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ** ﴾ [التوبة: آية ٥] بما يعني أنَّ المسلمين الذين في قصر الإمبراطور يحملون أمر اغتياله بموجب دينهم.[٤] فاتخذ قبلاي قراراً بإبعادهم عنه وتجريدهم من حقوقهم وامتيازاتهم وأمرهم باتباع شريعة المغول (اليساق) في أحوالهم الشخصية وأجبرهم على أكل اللحوم المخنوقة التي يأكلها المغول والصينيون.[٥] كما أمرهم باتباع اليساق في الزواج وأنزل الأئمة من على المنابر.[٦]

---

(١)-Boyle, John Andrew, The Successors of Genghis Khan, op.cit., pp 288-293.

(٢)Ibid., pp.293- 296.

(٣)Ibid., 294.

(٤)Ibid., pp.294-295.

(٥)Ibid., p.294.

(٦)بدر الدين حي الصيني، العلاقات بين العرب والصين ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٠م، ص ٢٠١.

ويقول رشيد الدين: " إنه عندما صار الأمر كذلك ترك معظم المسلمين بلاد الخُطا (الصين) ولم يعد التجار المسلمون يأتون إلى بلاد الخُطا " وقد استمرت مقاطعة التجار المسلمين للصين مما أدى إلى تراجع عائدات الدولة المالية واضطربت التجارة مع بلاد المسلمين فتقدم عدد من حكام الولايات والمقاطعات ومسؤولو الشؤون المالية بالتماس للإمبراطور عن طريق كبير الوزراء سِنغ (Seng) لإلغاء المرسوم الإمبراطوري واحترام العادات الإسلامية. وقد صدر مرسوم بذلك وعاد التجار المسلمون إلى الصين.[١] وكانت هذه الأزمة بين العالم الإسلامي من جهة والمسلمين الصينيين داخل البلاط وخارجه والسلطات المغولية قد استمرت لمدة ٧ سنوات.[٢] ونلاحظ أنَّ التجار المسلمين قد بدأو في العودة إلى الصين في أواخر عهد قبلاي خان. وهكذا نرى أنَّ علاقات المسلمين بالبلاط المغولي كانت غير مستقرة وهي رهينة إلى حد كبير بتوزان السلطة داخل البلاط.

حاولنا في الأجزاء السابقة من الدراسة أن في نرسم صورة عامة للمسلمين الصين إبَّان الحقبة المغولية وطبيعة العلاقة القائمة بينهم وبين حكامهم المغول وإسهاماتهم في رفد تيار الحضارة الصينية والإنسانية ونحاول في هذا الجزء من الدراسة الرد على مدرسة غربية تشكك باستمرار في مساهمات المسلمين الصينيين في تلك الحقبة متجاهلة عن عمد أو عن جهل إسهاماتهم العظيمة في تاريخ الصين وعلى النقيض تعمل على تصويرهم أداة في يد قوى أجنبية تستعمر بلداً أجنبياً عملت على اضطهاد الصينيين وأسهمت في إذلالهم، وخطورة هذه

(١)Boyle, John Andrew, The Successors of Genghis Khan, op.cit., p.294.

(٢)Ibid.,

المدرسة أنها تستدعي التاريخ حسب رؤيتها لتسمم الحاضر في الصين وتزرع بذور الشقاق بين أبناء القوميات المسلمة وأشقائهم غير المسلمين وتصويرهم بأنهم أجانب في وطن ليس وطنهم، وهى محاولة لعزل المسلمين الصينيين عن محيطهم السياسي والثقافي الراهن وتصويرهم كوافدين وليس كمواطنين كاملي الحقوق وذلك لإضعافهم كجماعات يمكن أن تلعب دور الجسر بين الصين والمسلمين لصالح قضايا المسلمين العادلة.

ويتفاوت روّاد هذه المدرسة في نظرتهم المعادية للمسلمين من اجتهادهم لحشد الأدلة التاريخية الضعيفة لربط المسلمين والإسلام بأسرة يُوان المغولية متجاهلين أنَّ المغول عندما جاءوا إلى الصين وجدوا أن الإسلام قد مضى عليه أكثر من ٦٠٠ عام في الصين، ونلاحظ أنهم حاولوا التشكيك في تاريخ المساجد في الصين التي تعود لأسرة تَانغ وسُونغ، وأعادوها بأدلة ضعيفة وواهية إلى أسرة يُوان سارقين بذلك ٦٠٠ عام من عمر الإسلام والمسلمين والمساجد في الصين.* بينما يعتقد باحثون آخرون مثل مُوريس رُوَسابي (Morris Rossabi) أن المغول قد استخدموا بوعي أو بغير وعي المسلمين ككبش فداء ليصب الصينيون غضبهم عليهم بدلاً من حكامهم المغول.(١) بل يذهب روّاد آخرون مثل رفائيل إسرائيلي (Raphael Israeli) إلى القول "بإن المغول قد استخدموا المسلمين كيد باطشة ضد الصينيين".

* تنشط هذه المدرسة بشكل خاص في التشكيك في الجذور التاريخية للإسلام والثقافة الإسلامية في الصين، وقد رددت في بحث منشور على بعض آراء هذه المدرسة، انظر جعفر كرار أحمد، ملاحظات حول الجذور التاريخية للثقافة الإسلامية في الصين، مجلة دراسات قومية هوي، أكاديمية الصين للعلوم الاجتماعية نينغشيا، العدد ٣٤، ١٩٩٩ (باللغة الصينية).

(١)Rossabi, Morris, the Muslims in the Early Yuan Dynasty, op.cit, pp. 258.259.

ويذهب هذا الكاتب أكثر ليتوهم أحقاداً بين المسلمين (الهُوي) و قومية الهَان تعود جذورها لهذه الفترة.(١)

إنَّ هذه المدرسة في تقديري تقع في إشكاليات عدة فهي على سبيل المثال تجهل أو تتجاهل الظروف التاريخية التي جاء فيها المسلمون إلى الصين ودورهم الحقيقي داخل هذا المجتمع المعروف عنه التسامح ربما لجهل معظم روَّاد هذه المدرسة بلغة أهل الصين ودراسة غالبيتهم لشؤون الصين دون أن يعيشوا فيها. كما تخلط هذه المدرسة ـ بين أهداف سياسة غير مرئية والتاريخ، لتفسد صفاء الوئام القومي الحاصل الآن بين المسلمين الصينيين (الهُوي)- وأشقائهم غير المسلمين. مستندين على كون المسلمين كانوا مفضلين حسب النظام الطبقي العرقي العنصري الذي وضعه المغول لحكم الصين، وعلى بعض الأمثلة غير المُشرِّفَة لبعض القيادات الإدارية للمسلمين مثل أحمد الفنكاتي متجاهلين أو جاهلين إسهامات غالبية المسلمين إبَّان أسرة يوان في تقدم وازدهار الصين.

وعلى عكس ما تذهب إليه هذه المدرسة تحفظ لنا المصادر الصينية أنَّ المسلمين لم يكونوا معزولين عن المجتمع الذي عاشوا فيه وأصبحوا جزءاً منه يحملون جنسيته وآماله، بل عرضوا حياتهم ومصالحهم للدفاع عن شعبهم الذين أصبحوا جزءاً منه ولم يكونوا جامعي ضرائب فقط كما تصر الكتابات الغربية على وصفهم. لقد صورت المصادر الصينية مثل كتاب تاريخ أسرة يُوان والصينيون أدرى بتاريخ بلادهم نماذج إسلامية كثيرة ضربت مثلا رائعاً في عفاف اليد إذ يقول تاريخ أسرة يوان عن شمس وهو مسؤول مسلم كبير عمل في عدد من المحافظات

(١)Edited By Raphael Israeli and Anthony H.Johns , Islam In Asia , Volume 2 Southeast and East Asia , A study Of Sino – Muslim Communities , Paper Presented By Jonathan N.Lipman, East View Press ,Boulder, Colorado , 1984, pp.281-282.

وهو بالطبع ليس شمس الدين حاكم يُونان الذي ذكرنا " قام بمعاقبة الموظفين الفاسدين ودافع عن مصالح الناس وكسب احترامهم لميله الشديد للعدل".(١)

ويحيلنا رشيد الدين إلى شخصيات إسلامية أخرى منها أبوبكر بن شمس الدين الأجل الذي رفض جمع الضرائب في أوقات المجاعات بل فتح مخازن الدولة لتوزيع الأغذية على الفقراء رافضاً طلباً رسمياً بالاستمرار في جمع الضرائب في هذا الوقت ودافع عن قراره أمام البلاط فأعجب الإمبراطور بأمانته وانحيازه للفقراء.(٢)

أما جمال الدين ووالده المسؤول الإداري المالي في منطقة وُو شَانغ شِين (Wu Chang Shien) فقد نذر حياته لخدمة الناس هناك "وبسط العدل وازدهر في عهده اقتصاد المنطقة وعاش الناس في سعادة وقدم من أمواله الخاصة مساعدات للفقراء وللعلماء والباحثين، وعند نهاية فترة خدمته هناك قام الناس ببناء قاعة تخليداً لذكراه وأطلقوا عليها اسم قاعة الفضيلة وغرس القيم (Chung Te Chih Tang) وشبهت المصادر الصينية هذا الحاكم العادل المسلم بأحد حكام أسرة هان وهو شُو يي (Chu I) الذي حكم منطقة أَنْهُوي الحالية (Tung – Shian) واشتهر بعدله.(٣)

---

(١)Yuan Shi (History of Yuan Dynasty) Chapter 190, p.406.

انظر أيضا إعداد محمود يوسف– لي خوا ين وآخرين ، تعريب محمود يوسف ، لي هوا ين وآخرين ، الشخصيات الإسلامية البارزة في الصين ، دار النشر باللغات الأجنبية، بكين، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣ ،مصدر سبق ذكره ، ص ٢٣-٢٦.

(٢)Boyle, John Andrew, The Successors of Genghis Khan, op.cit.,p. 300.

(٣) Che'n Yuan, Translated and annotated by Ch'ien Hsin hai and L. Carrington Goodrich ,Western and Central Asians in China, op.cit., p. 99.

وتحفظ لنا المصادر الصينية أيضاً شخصية إسلامية أخرى حظيت باحترام كبير وهو الإداري المسلم Mu – Sa – Fei (ربما مصطفى) وكان مسؤولاً حكومياً بمنطقة جنوب نهر اليانغسي (Chung – Jan- Shien) وقد وجدت هذه الشخصية نظراً لعدلها وتفانيها في خدمة الناس احتراماً كبيراً.

وتنقل لنا المصادر الصينية وهي تتحدث عن حياة هذا الإداري المسلم هذا المقطع "قال السكان المحليون بصوت واحد ما أعطف وأنبل حاكمنا، خلال العقدين أو الثلاثة الأخيرة ليس لدينا مثل هذا الحاكم.إن هذا الحاكم يكن احتراماً عميقاً للتقاليد الصينية".[1] ومنح الأهالي مصطفى لقب صيني يعني "الرجل العطوف".[2] وبلغ ببعض الإداريين المسلمين حد مقاومة الأوامر الإمبراطورية عندما تضاربت مع مصالح فقراء الناس مثل الشاعر والإداري الصيني المسلم قاوكه قونغ ٦٤٦- ٧١٠ هجرية (١٢٤٨- ١٣١٠م) الذي قاوم أمراً إمبراطورياً لجمع الضرائب في مدينة جُنكو (تِشَنْجيَانْغ الحالية) الذي كان قائماً على أمرها ورفض التوقيع على الأمر الصادر ودافع عن موقفه قائلاً بأن الأهالي غير قادرين على دفع الضرائب بسبب أحوالهم الاقتصادية السيئة. وتشير المصادر الصينية "إلى أن قاوكه كان رؤوفاً بعامة الشعب ويعارض تحميلهم ما لا طاقة لهم به ويساعد صغار الحرفيين لحثهم على الإنتاج وخفض الضرائب المفروضة عليهم وضبط القضاء وحارب الفساد".[3] وتشير هذه المصادر إلى أنَّ الرجل بالرغم من تقلده

---

(١)Ibid. ,p.229

(٢)Ibid.,

(٣).Ibid., p .204

انظر أيضا إعداد محمود يوسف – لي هوا ين وآخرين ، تعريب محمود يوسف ، لي هوا ين وآخرين ، الشخصيات الإسلامية البارزة في الصين ، دار النشر باللغات الأجنبية ، بكين ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣ ، مصدر سبق ذكره ، ص ص ١١- ١٢.

لعديد من المناصب في العاصمة دَادُو (Dadu) وغيرها إلا أنه استدان لتغطية نفقات السفر عند انتقاله إلى مركز حكومي جديد وقد توفي دون أن يترك لأهله ثروة أو ممتلكات.[١] كما أشارت هذه المصادر إلى محمد تشي يوان مفتش الشرطة الذي عاش إبَّان أسرة إيوان وقد أشادت المصادر الصينية بشجاعته وبفضائله وبحبه إلى الخير وعدله واحترامه للناس.[٢]

ونختتم هذا الاستعراض السريع بشاعر صيني آخر انحدر من بيت مسلم عريق في الصين وهو سعد الله الذي بالإضافة إلى إسهاماته الشعرية المميزة التي أشرنا إليها في وقت سابق دافع عن شعبه عندما احتل مواقع إدارية مهمة في محافظات مختلفة في الصين كما دافع عن شعبه كشاعر حيث كشف بشعره النابض القوي القوة التي استغلت شعبه وكشف جرائم الحكام الإقطاعيين. هذا في وقت أشارت فيه المصادر الصينية بكل تقدير إلى إنجازاته في ضبط الأسواق والمقاييس والمكاييل والموازيين وكبح غلاء الأسعار.[٣]وفتح هذا الإداري الأديب مخازن الحبوب في منطقة مدينة تشنجيانغ التي اجتاحتها كوارث ومجاعات بعد وقت قصير من وصوله لها. بل اصطدم بحاكم المنطقة بسبب تعاطفه مع فقراء الفلاحين وتشير المصادر الصينية إلى أنه باع إبريقه الفضي لمساعدة مواطنين لجأوا إلى مناطق قريبة من قصر الحاكم الذي سارع بإبعادهم عن مقر قصره.[٤] وقد دفع سعد الله ثمن الدفاع عن مواطنيه غالياً، فقد عُزل من منصبه ومات فقيراً مشرداً لكنه خلد نفسه بشعره الذي كرسه لفضح جرائم الإقطاعيين. يقول الشاعر سعد الله في عمله

---

(١)نفس المصدر.

(٢)Che'n Yuan, Translated and annotated by Ch'ien Hsing hai and L. Carrington Goodrich, Western and Central Asians in China, op.cit, p. 254.

(٣)يحيى لين سونغ ، سعد الله – شاعر من قومية هوى ، سلسلة ثقافية (١) ، منشورات مجلة بناء الصين ، دار المنشورات في الصين ، بكين ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ ، ص ص .١٢٢- ١٢٣.

(٤)نفس المصدر، ص ٢٣.

المعروف (فيضان النهر الأصفر قبل أوانه) "كان الموظفون يجبرون الفلاحين على تسليم ضرائب الأطيان حتى قبل أن تتاح لهم فرصة تذوق حصادهم الجديد.. ليت صوت غنائي للنهرين يترامى إلى سمع الأمراء والحكام وليت أنين الرياح يحيى النباتات الذابلة".(١)

ولا تعكس المصادر الصينية التاريخية صورة أمينة فقط لاستجابة المسلمين في الصين لنبض المجتمع الذي عاشوا فيه وأصبحوا فيه إداريين وشعراء وعلماء أديان وأبناء مخلصين لوطنهم الجديد، بل نقلت لنا أيضاً استجابتهم السريعة لإرادة التغيير عندما تراجعت سياسات التسامح الثقافي والديني التي اتسمت بها فترة قوبلاى خان وما سبقوه من حكام المغول. فبعد موت قوبلاى خان في سنة ٦٩٤ هجرية (١٢٩٤م) تولى توقان تيمور آخر أباطرة المغول الحكم في الصين وقد بدأت في عهده تنتظم الثورات الصين بسبب تراجع سياسات التسامح الديني والثقافي والعدل النسبي الذي اتسمت به فترة حكم قوبلاي خان وبسبب تنامي الغضب وسط الصينيين ورغبتهم في استعادة السيطرة الكاملة على بلادهم وفى هذه الفترة الحاسمة من تاريخ الصين انحاز المسلمون الذين أصبحوا جزءاً من الأمة الصينية إلى قوات الثورة التي كانت تقاتل المغول وكوّن بعض المسلمين جيوشهم الخاصة للإسهام في معركة التحرير.(٢) واشتهر من بينهم قادة صينيون مسلمون منهم تشانغ يوي تشون الذي انضم إلى صفوف المقاومة في سنة ٧٥٣ هجرية (١٣٥٢م) وظل

(١)إعداد محمود يوسف – لي هوا ين وآخرين، تعريب محمود يوسف، لي هوا ين وآخرين، الشخصيات الإسلامية البارزة في الصين، دار النشر باللغات الأجنبية، بكين، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠- ٢١.

(٢)Jianping Wang, Concord and Conflict, op.cit., p.53.

يقاتل إلى جانب القائد الصيني تُشو يُوان تَشانغ - الذي أصبح إمبراطوراً على الصين فيما بعد - منذ ٧٥٦ هجرية (١٣٥٥م) واشتهر بشجاعته وحرَّر الكثير من المدن المهمة.[١] هذا بالإضافة إلى القائد المسلم هُودَاهَاي الذي ظل يقاتل أيضاً إلى جانب شو يوان تشانغ، ونتيجة لإسهاماته في تحرير الكثير من المدن والمقاطعات مُنِحَ بعد موته لقب أمير مملكة يُويه ورُسمت صورته في معبد الأبطال بوصفه بطلاً بارزاً ساهم في تأسيس أسرة مينغ الصينية.[٢]

وكانت آخر معارك تحرير الصين في إقليم يُونان، حيث رفضت القبائل هناك الاستسلام لأسرة مينغ وقد أرسـل الإمبراطـور قائدين مسلمين من قواده هما لان يُو(Lan Yu) ومُو يينغ (Mu Ying) وبعد أن أكملا مهمتهما أمرهما الإمبراطور بالبقاء حكاماً عليها.[٣] * ولا ننكر أن اضطراباً ساد لوقت قصير في علاقات المسلمين بمواطنيهم الصينيين وبالحكام الجدد ولكن لم تسُد هذه الحالة طويلاً فبعد وقت قصير من انتصار قوات الثورة وتأسيس أسرة مينغ عاد الكثير من المسلمين الذين عملوا في السلك الإداري والعلمي في ظل أسرة يوان للانتظام في السلك الإداري للإمبراطورية الجديدة. ويقول الباحث الصيني وَانغ جِيابنغ "في

(١)إعداد محمود يوسف – لي هوا ين وآخرين ، تعريب محمود يوسف ، لي هوا ين وآخرين ، الشخصيات الإسلامية البارزة في الصين ، دار النشر باللغات الأجنبية ، بكين، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣ ،مصدر سبق ذكره ، ص ٣٨- ٤٠

(٢)نفس المصدر ، ص ص. ٣٩- ٤٣.

(٣) Jianping Wang, Concord and Conflict, op.cit., pp.٥٣-٥٤.

* استمر المسلمون يحكمون هذا الإقليم وقد تعاقب على حكمه أبناؤهم وأحفادهم مثل Ma Chun- Mu Chen – Mu Ang وغيرهم وبقوا حكاماً عليه حتى سقوط أسرة مينغ في عام ١٦٤٤م على يد جيوش المانتشو.

الفترة الانتقالية بين الحكم المغولي وأسرة مينغ الجديدة لم يتضرر المسلمون كثيراً من حكامهم الجدد وحافظ الكثير من المسلمين على مواقعهم القديمة في جهاز الدولة، كما استمر أحفاد المسلمين الذين ورثوا ألقاباً رسمية يحملون ذات الألقاب في العصر الجديد".(١) بل إنَّ الإمبراطور الذي تعرف على المسلمين عن قُرب أثناء القتال ضد الجيوش المغولية أصدر عدداً من المراسيم الإمبراطورية لحماية المسلمين وضمان حقهم في العبادة منها مرسوم صادر في عام ١٣٩٢م يحمي المسلمين وممتلكاتهم ومساجدهم كما قدم الإمبراطور أرضاً ودعماً مالياً لبناء مسجدين وشجعهم على مواصلة الأعمال التجارية داخل الصين وقد رأيت شخصياً مرسوماً إمبراطورياً بهذا المعنى محفوظ عند أحد أئمة المساجد في مدينة يَانْجُو. بل إنَّ الإمبراطور تَاي زُو(Tai Zu) ٧٧٠- ٨٠١ هجرية (١٣٦٨- ١٣٩٨م) أمر ببناء مسجد في نانجين ونظم شخصياً قصيدة مكونة من مائة كلمة في مدح الرسول الكريم.(٢) نُحتت على نصب حجري وضع في هذا المسجد.

* * *

(١)Jianping Wang, Concord and Conflict, op.cit., pp.77-80.

(٢) محمد مكين، نظرة جامعة إلى تاريخ الإسلام في الصين وأحوال المسلمين فيها، (محاضرة ألقاها محمد مكين بجماعة التعارف الإسلامى بالقاهرة، ١٥ أغسطس ١٩٣٤)، المطبعة السلفية، القاهرة، بلا تاريخ، ص ٢٢.

الخاتمة :

خلصت هذه الدراسة إلي أن المسلمين في العصر المغولي في الصين قد لعبوا أدواراً اقتصادية وسياسية وعلمية وثقافية مهمة كانت في مجملها أدواراً إيجابية، فقد أسهموا في ازدهار الصين الاقتصادي وربطها بالعالم الخارجي كما نقلوا للصين معارف الدنيا العلمية طب، فلك، جغرافية، رياضيات، معمار... إلخ ونقلوا معارفها للعالم. كما استطاع زعماء مسلمون مثل السيد الأجل عمر شمس الدين أن يعيد دمج أقاليم كبيرة مثل يُونان مع أقاليم الصين الأخرى، بل عمل على بناء نسيجها الثقافي ليتلاءم وبقية البلاد. كما صمم بعضهم مثل يحيى طاهر عاصمة الصين نفسها دَادو (بكين). كما أثرى المسلمون في هذه الحقبة حركة الأدب والثقافة والفلسفة الصينية بإسهامات جديدة. وأصبح المسلمون بمرور الأيام جزءاً من نسيج الأمة الصينية ومن تركيبتها الجغرافية وذلك بوجودهم في أقاليم محددة شكلوا الجزء الأكبر من سكانها، كما أصبحوا جزءاً من بنيتها السكانية والثقافية بعد أن تشكلوا كواحدة من قوميات الصين الكبرى (قومية الهُوي المسلمة). كما ردت هذه الدراسة في تقديري رداً يبدو كافياً على أولئك الذين يحاولون استخدام التاريخ دون أدلة تاريخية كافية عند دراسة الحقبة المغولية في الصين للإساءة إلى مسلمي الصين عامة باتهامهم بأنهم كانوا جزءاً من آلة القمع الاقتصادي والسياسي المغولية بحكم وجودهم في جهاز الدولة المغولي ويتناسى هؤلاء الكتاب أن هذا الجهاز كان يضم أفراداً من أمم مختلفة مسلمين ومسيحيين ويهود ولادينيين كما يتناسى هؤلاء الكتاب أنَّ المسلمين الذين فقدوا دولتهم الكبرى في سنة ٦٥٧ هجرية (١٢٥٨م) على يد المغول أنفسهم كانوا مجرد رعايا خاضعين للمغول تماماً مثل آلاف الجنود الصينيين الذين كانوا جزءاً من الجيوش المغولية التي غزت الشرق ومن بينها بغداد

نفسها. وقد لاحظت أنَّ المسلمين بالرغم من وجودهم داخل الجهاز الإداري المغولي بحكم كفاءتهم الإدارية ومعرفتهم الجيدة بالصين فهم الذين تواجدوا فيها منذ أسرة تانغ، إلا أنهم وكما أشرنا لم يكونوا طوال الوقت أداة جمع ضرائب، بل إنَّ ثقافتهم الإسلامية ووعيهم لقيمة العدل التي في تقديري لا يستقيم إسلام المرء دونها جعلتهم بشكل عام منحازين لشعب أصبحوا جزءاً منه وأسهموا في بناء مدنه وتوحيد ترابه وإثراء ثقافته وأخيراً حملوا السلاح للدفاع عنه وتحريره عندما اقتضت الضرورة ذلك. كما استفاد المسلمون من أجواء التسامح الثقافي والديني الفريد التي اتسم بها العصر المغولي بشكل عام لنشر الإسلام الذي انتقل من دين يتركز في المدن والمراكز التجارية على طول طريق الحرير البحري والبري إلى دين يمكن ملاحظة شواهده في مقاطعات ومدن وقرى ساحلية وداخلية في الشرق والغرب والجنوب. كما تدل الآثار التاريخية للمسلمين التي زُرتها في مدن تُشوانتُشو ويَانجُو وكُومينْغ وغيرها من مناطق الصين، أنَّ الإسلام والمسلمين في العصر المغولي في الصين كانوا جزءاً من حوار حضاري وثقافي سلمي متقدم وراقٍ، راقبه جهاز الدولة المغولي المتسامح دينياً دون تدخل، ورعته المجتمعات الصينية المجبولة على التسامح مع الآخر بحكم ثقافتها السلمية.

من خلال هذه الدراسة ومن دراسات أخرى أجريتها حول الإسلام والعرب في الصين لاحظت أنه بينما تهتم الشعوب الأخرى كالإيطاليين ببعض آثارهم الثقافية في الصين ويسعى الهنود لرسم خريطة لطريق الحرير بينهم وبين الصين ومتابعة آثارهم الثقافية في تُشوانتُشو ويخلق الغربيون ضجة وهالة هائلة حول ماركوبولو ودوره في الصين، بينما يسعى اليهود جادين للبحث عن آثارهم في الصين، يبدو العرب والمسلمون غير مبالين وهم أصحاب النصيب الأكبر من

التراث التاريخي في الصين إن كان موثقاً في بطون الكتب أو آثاراً ملموسة وواقفة تنتظر من يلتفت إليها. ولأنني أعتقد أنَّ الرد على الحملة ضد المسلمين وتاريخهم في الصين لا يكفيها مثل هذا النوع من الدراسات فقد رأيت في ختام هذه الدراسة أن أتقدم بالمقترحات التي قد تسهم إذا ما تم تنفيذها في تسليط بعض الضوء على تراثنا الإسلامى والعربي في الصين بغرض حمايته والتعريف به ولتعزيز علاقاتنا مع شعوب هذه المنطقة :

١- النظر في تنفيذ اقتراح الباحث الصيني لِي شِنْغشَنغ (Li Qingsheng) من مركز يُونان لدراسات القوميات والذي دعا فيه إلى إنشاء مركز دراسات خاص بالسيد الأجل شمس الدين وبناء قاعة تذكارية تخليداً لذكراه.

كما أقترحُ التالي :

١- تمويل دراسة للبحث عن الجذور التاريخية لأسرة السيد الأجل شمس الدين عمر في بخاري وذلك لسد النقص في المعلومات التاريخية حول تاريخ أسرته ودورها في بخاري والصين.

٢- أن تقوم المراكز والدوائر المهتمة بالتراث العربي والإسلامي في العالم العربي بالتعاون مع مراكز البحوث المهتمة بالتاريخ في العالم الإسلامي والجهات الصينية المختصة بتنظيم احتفال سنوي أو كل ثلاثة سنوات لتسليط الضوء علي إنجازات الراحل السيد الأجل شمس الدين على أن يتزامن مع مثل هذا النوع من الاحتفالات ندوة حول إسهاماته في نشر الإسلام في الصين و في ازدهار الصين واستقرارها.

٣- صيانة آثار السيد الأجل شمس الدين في يونان ومنها شبكات الري التي أقامها والمنشآت الأخرى كالمساجد والمعابد وضريحه.

٤- أن يقوم اتحاد المهندسين العرب بالتعاون مع مراكز البحوث المتخصصة في تاريخ الهندسة في العالمين العربي والإسلامى والجهات الصينية المختصة بتنظيم احتفال سنوي في بكين لدراسة الإرث التاريخي للمهندس يحيى طاهر باني مدينة بكين، وتنظيم ندوة حول أعماله ومساهماته بوصفه مهندساً عربياً مسلماً عظيماً. علماً بأنَّ الوثائق الصينية الحديثة والكتب الجديدة التي تتحدث عن تاريخ مدينة بكين تتجاهل ذكرى هذا المهندس.

٥- كما ذكرنا سابقاً فقد احتضنت الصين قبل مئات السنين حوار حضارات حقيقي تكشف عنه شواهد هذا الحوار في مدينة تُشوانتُشو على سبيل المثال مساجد، معابد، بقايا معابد هندية بقايا كنائس، شواهد قبور لعرب وفرس أتراك ويهود، هنود مسلمون ومسيحيون، بوذيون وغيرهم. نقترح أنَّ تقوم الحكومة الصينية بتنظيم اجتماع دولي أو ندوة دولية حول مفهوم حوار الحضارات يعقد في مدينة تُشوانتُشو بوصفها مركزاً قديماً لهذا الحوار.

* * *